تدبر وفهم كَلَامِ رَبِّي

سورة طه وسورة مريم

د. جمعة بن خادم بن سلم العلوي

سلطنة عمان

30 صفر 1448 الموافق 31 أغسطس 2026

بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوع ...." . . ..**الصفحة**

سور مريم 4

سورة طه 34

المراجع 67

سورة مريم

تسمية السورة

(**سورة مريم**): وهو الاسم الأساسي والتوقيفي المشهور في المصاحف وكتب التفسير والسنة، كما يطلق عليها (**سورة كهيعص**): وهو اسم اجتهادي أو تعريفي بالحروف الأولى منها، استعمله بعض الصحابة كابن عباس وورد في بعض الروايات النسخية الصحيحة.

وهو سورة مكية باتفاق، وقد ورد **خلاف يسير بين عُدّاد الآيات** في عدد آياتها، حيث تراوحت عدّاتها بين 98 و99 آية بناءً على اعتبار الفواتح هل هي آيات مستقلة أو عدم اعتبارها

فقد عدّ الكوفي الحروف المقّطعة (كهيعص) آية مستقلة، بينما عدّها الباقون جزءاً من الآية بعدها.

سبب نزول بعض آياتها

عن ابن عباس رضي الله عنها: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لجِبريلَ: ما يَمنَعُكَ أن تَزورَنا أكثَرَ ممَّا تَزورُنا، فنَزَلَت: {وما نَتَنَزَّلُ إلَّا بأمرِ رَبِّكَ له ما بينَ أيدينا وما خَلفَنا} [1]

بسم الله الرحمن الرحيم

*(كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (7) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا(11) يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا (13) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (14) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا)(15)

هذه الافتتاحية العظيمة من سورة مريم قطع بيانية تتناغم فيها الأصوات، والمعاني، والسياقات، لتسرد قصة الرحمة الإلهية في أرقى صورها وأجمل معانيها.

---

[1] - أخرجه البخاري (4731)

*﴿كهيعص﴾: الحروف المقطعة هنا تبدأ بأصوات مهموسة ومجهورة، تُحفّز أذن السمع وتستدعي الخشوع.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو اسم من أسماء الله، وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: هِيَ أَسْمَاءُ الله تعالى مقطعة لو أحسن النَّاسُ تَأْلِيفَهَا لَعَلِمُوا اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ»، «وَقَالَ قَتَادَةُ: هَذِهِ الْحُرُوفُ أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ زَيْدٍ: هِيَ أَسْمَاءُ السُّوَرِ»، وقيل: هو قسم أقسم الله به [1].

يُرجّح البقاعي وابن عاشور غيرهما – رحمهم الله - أنّ هذه الحروف التوقيفية تُشير إلى إعجاز القرآن المركب من جنس هذه الحروف، كما تُشير في أسلوب السورة إلى النغم المبتدئ بالخفاء المتمشي مع "النداء الخفي".

*﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ إشراقة في بلاغة السياق: إضافة "رحمة" إلى "ربك" بأسلوب الخطاب للنبي ﷺ تسليةٌ له وتأكيدٌ على ربوبية التربية والعناية.

يُشير سيد قطب – رحمه الله - إلى أنّ القصة تبدأ برسم جو الرحمة والنداوة، فـ "ذكرُ" هنا يفتح الستار على المشهد الندِيّ، حيث العبودية المحضة في "عبده زكريا" هي باب الرحمة الأعظم كما قرر ابن القيم – رحمه الله - في تحقيقه لمعنى العبودية.

*﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ إشراقة بلاغية: خفاء النداء أخلص للدعاء وأبعد عن الرياء.

بلاغة الأدب: يعلق ابن عاشور والبغوي – رحمهما الله - أن إخفاء النداء هنا يتناسب مع ضعف الشيخوخة واستحياء الداعي من طلبه الممتنع عادةً. وفي الجانب النفسي كما يلمح محمد قطب – رحمه الله -، تُمثّل المناجاة الخافتة في ظلمة الليل أعمق درجات الاتصال الروحي.

*﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

إشراقة بلاغية: "وهن العظم": خصّ العظم لأنه عماد الجسد وأصل القوة، ه آخر ما يهن من القوام، فإذا وهن تداعى سائر الجسد بالوهن.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم، وتَرَاحُمِهم، وتعاطُفِهِمْ. مثلُ الجسَدِ إذا اشتكَى منْهُ عضوٌ تدَاعَى لَهُ سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى[2].

([1]) – انظر البغوي: تهذب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص726).
([2]) – أخرجه البخاري (6011)، ومسلم (2586) واللفظ له.

﴿واشتعل الرأس شيباً﴾: هنا ما يسميه البلاغيون: استعارة مكنية بليغة شبهت الشيب بالنار المشتعلة في سرعة انتشاره وشحوبه المضيء في سواد الشعر.

بلاغيًّا، تقوم هذه الآية على تصوير مكثف؛ إذ شُبِّه الشيبُ بنارٍ تشتعل، وحُذف المشبَّه به ورُمز إليه بالفعل «اشتعل»، فجاءت الصورة نابضة بالحركة والانتشار، لا تصف مجرد ظهور الشيب، بل تُصوِّره سيطرةً شاملةً لا تترك موضعًا إلا بلغته.

كما إن إسناد الفعل إلى «الرأس» لا إلى «الشيب» ينقل الحدث من الجزئية إلى الكل، ويمنح التركيب قيمةً دلاليةً تفيد التمام والشمول، كما أنّ نصب «شيباً» تمييزًا يُزيل الإبهام ويُحكم جهة الاشتعال، فيتحقق الاقتصاد اللغوي مع غاية البيان[1].

وبهذا يتشكل الوعي لدى تالي القرآن بجمال وقوة صدق الاعتراف والتضرع إلى الله ببيان ضعف الحال، وشدة الافتقار إليه، والوعي بكرامة ضعف المؤمن، والوعي بقوة الرجاء رغم استحكام الأسباب

التوسل إلى الله بضعف الذات ("وهن العظم") وبوافر العطاء والنعم السالفة ("ولم أكن بدعائك رب شقياً")، هو أدب شريف يُبرزه ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله - في أدعية الأنبياء؛ فمن عوّدك الإجابة تسأله بنفس العطاء الأول.

*﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾

السياق والتفسير: الخوف هنا ليس خوفاً دنيوياً على ميراث زائل، بل خوف على الدين والدعوة وأمانة النبوة بعد موته، كما جزم بذلك البغوي وابن كثير – رحمهما الله -.

إشراقة بلاغية: تنكير "ولياً" وتنظيمه بـ "من لدنك" لقطع الأسباب العادية والإشارة إلى أنّ المطلوب معجزة من الخزائن الخاصة.

*﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾، قال الحسن: يرثني علمي، ويرث من آل يعقوب النبوة والحبورة، والمعنى: إنه خاف تضييع بني عمه دين الله وتغيير أحكامه على ما كان شاهد من بني إسرائيل من تبديل الدين وقتل الأنبياء، فسأله ربه وليّاً صالحاً يأمنه على أمته، ويرث نبوته وعلمه لئلا يضيع الدين، وهذا معنى قول عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما [2].

أما وراثة المال فقد صح عن نبينا صلى الله عليه وسلم قوله: نحنُ معشرَ الأنبياءِ لا نورَثُ ما ترَكناهُ فهو صدقةٌ.

([1]) – سيد قطب: التصوير الفني في القرآن (ص33).
([2]) – انظر البغوي: تهذب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص727).

وفي رواية من حديث عائشة رضي الله عنها: إنَّ أزواجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ توفِّيَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أرَدنَ أن يَبعَثنَ عُثمانَ بنَ عَفَّانَ إلى أبي بَكرٍ، فيَسألنَه ميراثَهُنَّ مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قالت عائِشةُ لهنَّ: أليسَ قد قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا نورَثُ؛ ما تَرَكنا فهو صَدَقةٌ [1].

أمّا ختام الدعاء بـ ﴿واجعله رب رضياً﴾ يُظهر تقديم المقاصد الدينية على الرغبات البشرية؛ فلم يطلب مجرد ولد، بل ولداً يرضاه الله وتطمئن إليه نفوس المؤمنين.

*﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾، السرعة والبيان: الفاء مقدرة دلت على سرعة الإجابة؛ نودي فوراً بالبشرى.

وقد أظهرت الفاء في سورة آل عمران ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:39].

جاءت التسمية جاءت من الإله ("اسمه يحيى") في اسم يحمل طابع الحياة الروحية. "لم نجعل له من قبل سمياً" فيها تخصيص فريد بصفاته أو باسمه، وهو ما يُبرز النعمة والتكريم.

*﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾

الاستفهام الأسلوبي: أسلوب تعجب واستبعاد للاعتياد لا للقدرة الإلهية، كما يتأول ذلك البقاعي – رحمه الله -.

إشراقة بلاغية في دقة الألفاظ: "عتياً" لفظ يدل على الجفاف واليبس الذي يلحق العود القديم، تعبيراً عن أقصى درجات الكبر والضعف. قال قتادة: يريد نحول العظم.

*﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾، التفسير والبلاغة: "كذلك" حسم للتردد والتفكير. والقياس هنا بالأولى: إيجادك من عدم كامل أعظم وأبلغ في القدرة من إيجاد ولد من أسباب ضعيفة.

يُلفت سيد قطب – رحمه الله – هنا النظر إلى كلمة "هيّن"، التي تُسقط منطق الأسباب أمام الإرادة المطلقة.

*﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ دلالة على حمل امرأتي. ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، إشراقة بلاغية وبيانية: الآية (العلامة) لم تكن مرضاً أو آفة، بل

(1) – أخرجه البخاري (6730) باختلاف يسير، مسلم (1758) هذا لفظة واللفظ الأول رواه ابن كثير في البداية والنهاية (ج4/ص204)

كانت صمتاً اختيارياً وتفرغاً للذكر رغم سلامة الأعضاء ("سوياً") أي: صحيحاً سليماً من غير ما بأس ولا خرس.

قلت: لعلها تشبه حال الإنسان الذي لا يستطيع الكلام من الفرح، فلو تكلم بكى، والله أعلم.

كما أنّ إمساك اللسان عن كلام البشر مع إطلاقه بالتسبيح معجزة بيانية بليغة، ومقدمة لتهيئة النفس لتلقي الفضل العظيم.

*﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: حبس لسانه فكان لا يستطيع أن يكلم أحدا، وهو في ذلك يسبح ويقرأ التوراة، فإذا أراد كلام الناس لم يستطع أن يكلمهم [1].

"الإيحاء" هنا بالإشارة أو الكتابة. خرج من محرابه (مكان العبادة الخالص) ليكون أول عمل بعد البشرى هو توجيه قومه للشكر والتسبيح بكرة وعشياً، توافقاً مع حالة الحمد الشاملة.

*﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ الإيجاز بالحذف: طُويت السنون وفترة الحمل والولادة، وانتقل النص فوراً إلى صلب المقصد: خطاب يحيى شبَاباً وصبياً.

إشراقة بلاغية: "بقوة" أي بحزم وجد وعزيمة. "والحكم صبياً" إيعاز بالفهم والفطنة والنبوة المبكرة، «قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنهما: النبوة، {صَبِيًّا} [مريم: 12] وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِ سِنِينَ. وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْحُكْمِ فَهْمَ الْكِتَابِ، فَقَرَأَ التَّوْرَاةَ وَهُوَ صَغِيرٌ. وَعَنْ بَعْضِ السلف قال. مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ فَهُوَ مِمَّنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ صبيا» [2].

*﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا﴾: "حنانًا" اسم مصدر يدل على الشفقة والعطف اللطيف المصبوب صباً من الله ("من لدنا"). "وزكاة" طهارة ونماء في الخُلق والروح.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي بِالزَّكَاةِ الطَّاعَةَ وَالْإِخْلَاصَ. وَقَالَ قَتَادَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هِيَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَهُوَ قَوْلُ الضَّحَّاكِ وَمَعْنَى الْآيَةِ وَآتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَتَحَنُّنًا عَلَى الْعِبَادِ، لِيَدْعُوَهُمْ إِلَى طَاعَةِ رَبِّهِمْ وَيَعْمَلَ عَمَلًا صَالِحًا فِي إِخْلَاصٍ.

([1]) – انظر ابن أبي حاتم أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ): تفسير ابن أبي حاتم (ج7ص2399)، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ

([2]) – انظر البغوي: تهذب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص728).

وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: يَعْنِي صَدَقَةً تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَى أَبَوَيْهِ، {وَكَانَ تَقِيًّا} مُسْلِمًا وَمُخْلِصًا مُطِيعًا، وَكَانَ مِنْ تَقْوَاهُ أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَطِيئَةً وَلَا هَمَّ بِهَا»[1].

الجمع بين التقوى والحنان والتزكية يُشكل البناء والكمال الروحي للأنبياء عليهم السلام.

*﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، إشراقة بلاغية بيانية: تقابل بين البرّ بالتواضع والرحمة، وبين "الجبار العصي" المتكبر الشقي. جاءت الألفاظ بضيغ المبالغة لنفي أدنى صفات الطغيان عنه.

*﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾، السياق والختام: نكّر "سلام" لإفادة الشمول والتعظيم.

قال سفيان بن عيينة - رحمه الله – أوحش ما يكون الإنسان في هذه الأحوال: يوم يولد فيخرج مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر لم ير مثله؛ فخص يحيى بالسلام في هذه المواطن[2].

الوعي الذي تشكله الآيات في خلد المؤمن: أنه مهما ضعف فلا يضعف رجاءه بربه الصمد سبحانه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يُستَجابُ لأحَدِكُم ما لم يَعجَلْ، يقولُ: دَعَوتُ فلَم يُستَجَبْ لي[3].

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه، عن البني صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللَّهَ حيِيٌّ كريمٌ يستحي إذا رفعَ الرَّجلُ إليْهِ يديْهِ أن يردَّهما صفرًا خائبتينِ[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا دَعا أحَدُكُم فلا يَقُلْ: اللهمَّ اغفِرْ لي إن شِئتَ، ولَكِن ليَعزِمِ المَسألةَ وليُعَظِّمِ الرَّغبةَ؛ فإنَّ اللهَ لا يَتَعاظَمُه شيءٌ أعطاه[5].

---

(1) – انظر البغوي: تهذب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص728).
(2) – انظر المصدر والصفعة السابقين.
(3) – أخرجه البخاري (6340)، ومسلم(2735) .
(4) – أخرجه الترمذي (3556)، وأبو داود (1488)، والترمذي (3556)، وابن ماجة (3865) واللفظ لهم، وصحح الألباني إسناده.
(5) – أخرجه بنحوه البخاري (6339)، ومسلم.(2679)

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ادْعُوا اللهَ وأنتمْ مُوقِنُونَ بالإجابةِ، واعلمُوا أنَّ اللهَ لا يَستجيبُ دُعاءً من قلْبٍ غافِلٍ لَاهٍ[1]..

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الدُّعاءُ هو العبادةُ ثمَّ قرأ {وَقال رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ} [2].

إلى غير ذلك من الأدلة الحاثة على الاجتِهادُ في الدُّعاءِ، وأنْ يَكونَ الدَّاعي على رَجاءٍ تاملالإجابةِ، ولا يَقنَط مِن رَحمةِ اللهِ تعالَى؛ فَإنَّهُ يَدْعو كَريمًا، ولا يَستَثْنِ، بَلْ يَدعو دُعاءَ البائِسِ الفَقيرِ.

*(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (21) ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (23) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا(25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (26) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(38)

(1) – أخرجه الترمذي (3479) واللفظ له، والبزار(10061) ، وحسن الألباني إسناده.
(2) – أخرجه أبو داود (1479)، والترمذي (2969)، وابن ماجة 3828) ، قال المنذري في الترغيب الترهيب: إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما.

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ(40)

هذه المقطوعة القرآنية في هذا الدرس الفريد من سورة مريم تُعدّ من أكثر مواضع السورة شجنًا وجلالًا، حيث تتلاقى فيها البلاغة العالية مع الإيقاع الرفيع، وتندمج الحركة بالنص السامي ليُشَيِّدَ صرحُ الحقيقة الإلهية الناصعة.

التحرر والاعتزال للمناجاة: *﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾

إشراقة بلاغية: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾: قوله سبحانة: "في الكتاب" يوحي بأنّ القصة أصبحت جزءًا مخلدًا من دستور الأمة الخالد، وليست مجرد حكاية تاريخية عابرة.

قوله: ﴿انتَبَذَتْ﴾: المطاوعة في الفعل (انتبذت) تُفيد التعمّد والانفراد التام برغبة واقتناع؛ والنبذ في اللغة هو طرح الشيء جانباً، وكأنها طرحت الدنيا وعوائق البشر وراء ظهرها لتتفرغ للعبادة.

﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾: تخصيص الاتجاه الشرقي يحمل دلالة الضياء والنور والإشراق، وهو المكان الذي تُشرق منه الشمس، إشارة بليغة إلى فجر جديد ومعجزة نورانية قادمة.

*﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، إشراقة: بلاغية: ﴿حِجَابًا﴾: تنكير "حجابًا" للتعظيم والستر المطلق؛ سترٌ مكاني ونفسي عن أعين الناس لئلا يشغلها شاغل.

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾: الإضافة في "روحنا" (جبريل عليه السلام) إضافة تشريف وتكريم وتعظيم للرسالة والمُرسَل.

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾: التمثل هو تجسد الروحاني في صورة مادية؛ والتأكيد على "سويّاً" (أي مكتمل الخلقة جميلاً) لإظهار كمال فتنة الموقف للأنثى الخالية العفيفة، ليعظم ثباتها وعفتها عند الامتحان.

مفاجأة الامتحان ومواجهة العفة: *﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾

إشراقة بلاغية: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ﴾: استعاذت باسم الله "الرحمن" تحديداً، استرحاماً واستغاثة برحمته التي تسع كل خوف، ولتذكير الغريب بالرحمة ألا يعتدي عليها.

﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾: شرط فيه أسلوب إلهاب للضمير؛ أي إن كان فيك بقية من تقوى وخوف من الله فارتدع فوراً بذكر اسمه. يقول ابن عاشور -رحمه الله -: "استثارت فيه وازع التقوى؛ لأن التقوى هي الحجز الأصيل عن البغي".

*﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾: إشراقة بلاغية: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر وطمأنة فورية لإزالة الرعب عن قلبها؛ أي لستُ بشراً أطلبُ منك سوءاً، بل أنا مجرد سفير ومبلغ.

﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾: نسبة الهبة إلى جبريل مسندة إليه باعتباره السبب والمباشِر لنفخ الروح بأمر ربه، والواهب الحقيقي هو الله، ﴿زَكِيًّا﴾: الزكاء يشمل الطهارة والبركة والنمو في الخير والعصمة من الذنوب.

*﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، إشراقة بلاغية: ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام للتعجب والاستبعاد العادي والعقلي، وليس إنكاراً لقدرة الله.

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾: الكناية بالمس عن الزواج الحلال (الاستعفاف والكناية اللطيفة).

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾: نفي الحرام؛ وحذف النون في "أكُ" أصلها (أكن)، والحذف في البلاغة يُفيد نفي القليل والحقير، أي: لم أكن يوماً -ولو في لمحة أو خاطر- بغياً!

*﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾

إشراقة بلاغية: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾: إحالة على القدرة المطلقة التي لا تحتاج أسباباً؛ فالخلق بدون أب كالخلق من أب، وكلاهما هين على البارئ.

﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾: تنكير "رحمة" للتعظيم والشمول، ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾: استخدام اسم المفعول لبيان أن القضاء قد أُبرم وانتهى في علم الله وشيفرة القدر، فلا رادّ له.

آلام المخاض وعزلة العذراء: *﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾، إشراقة بلاغية: الفاء في ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾: فاء التعقيب للدلالة على سرعة وقوع القدر بكلمة "كن".

﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾: أي بعيداً عن الناس حياءً وسترًا؛ وفي الانتقال من "مكاناً شرقيّاً" إلى "مكاناً قصيّاً" أبعاد أسلوبية تعكس حجم الضغط النفسي الذي تحمّلته العذراء الطاهرة.

*﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾

إشراقة بلاغية: ﴿فَأَجَاءَهَا﴾: التعبير يحمل معنى "ألجأها وضغط عليها"؛ والمخاض هو وجع الولادة، فالتعبير يحكي قوة الألم العضوي والنفسي المتشابكين.

*﴿إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾: الجذع هو الحامل للنخلة، وفي اختيار النخلة توفيق لاختيار الطعام المناسب للولادة والظل، ودليل على انقطاع الأسباب البشرية.

﴿يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾: تمني الموت هنا ليس اعتراضاً، بل خوفاً على الدين وألم الحياء من ألسنة التهمة؛ "النسي": الشيء الحقير المتروك المنسي الذي لا يُلتفت إليه (كخرقة الحيض أو العود الساقط). يذكر سيد قطب – رحمه الله - هنا: "إنه لمشهد الإنسانية الضعيفة الخائفة المذعورة في أقصى لحظات المأساة".

البشارات واللطائف الإلهية: *﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾

إشراقة بلاغية: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾: نهي يراد به الطمأنينة والإيناس، ﴿سَرِيًّا﴾: "السري" في اللغة هو الجدول الصغير من الماء العذب، وقيل هو السيد الشريف (أي الطفل الوليد). والبلاغة تتسع للمعنيين: السري هو الماء الساري لشرابها، والوليد الشريف لنصرتها!

(تَحْتَكِ): قال البغوي رحمه الله : لَمْ يُرِدْ بِهِ أَنَّهُ تَحْتَهَا وَهِيَ قَاعِدَةٌ عَلَيْهِ، بَلْ أَرَادَ بَيْنَ يَدَيْهَا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ضَرَبَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ -وَيُقَالُ: ضَرَبَ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-بِرِجْلِهِ الْأَرْضَ فَظَهَرَتْ عَيْنُ مَاءٍ عَذْبٍ وَجَرَى .

وَقِيلَ: كَانَ هُنَاكَ نَهْرٌ يَابِسٌ أَجْرَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِ الْمَاءَ وَحَيِيَتِ النَّخْلَةُ الْيَابِسَةُ، فَأَوْرَقَتْ وَأَثْمَرَتْ وَأَرْطَبَتْ، وَقَالَ الْحَسَنُ: "تَحْتَكِ سَرِيًّا" يَعْنِي: عِيسَى وَكَانَ وَاللَّهِ عَبْدًا سَرِيًّا، يَعْنِي: رَفِيعًا

قراءات: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب وابن عامر بفتح من (من)، وفتح التاءين، فتكون نصا على أن المنادي وليدها عيسى بن مريم عليه السلام،

أما قراءة بقية القراء فتنص على جهة المنادي دون شخصه فربما كان المنادي جبريل أو عسى عليهما السلام.

*﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾، إشراقة بلاغية: ﴿وَهُزِّي﴾: الأخذ بالأسباب؛ فالنفساء الضعيفة لا تقدر على هز جذع نخلة راسخ، ولكن الله يطلب منها الشروع في السبب ليتولى هو المسبب معجزةً.

﴿تُسَاقِطْ﴾: أصلها (تتساقط)، وحذف التاء للسرعة والخفة؛ أي ينزل عليك الرطب سهلاً متتابعاً.

﴿جَنِيًّا﴾: أي طرياً طازجاً شهياً في لحظته، مناسباً لحاجتها الغذائية العاجلة حين الولادة.

*﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾

﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾: أصلها من القَرار أو القُرّ (البرودة)؛ وطمأنينة العين وسكونها بدمعة الفرح.

عن المغيرة بن شعبة وأنس بن مالك رضي الله عنهما، عن النبي صلي الله عليه وسلم قال: جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيني في الصَّلاةِ.

وفي رواية عن أنس رضي الله عنه مرفوعا: حُبِّبَ إلي منَ الدُّنيا، النساءُ ، والطِّيبُ ، وجُعِلَ قرةُ عيني في الصلاةِ [1].

*﴿نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾: المراد بالصوم هنا: الصمت والسكوت عن الكلام. وفي إشارتها بالصوم تعليم حكيم: ترك الجدال للبشر عندما تكون المعجزة أعظم من كلام الألسن.

فإن قيل: لم ناداها وهو تحتها سؤاء فسرت بالقرب، أو على أصلها، **فالجواب:** إن التعبير القرآني في الآية الكريمة (فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي) يحمل أسراراً لغوية وبيانية هائلة، فالنداء هنا هو اختيار رباني معجز يتناسب تماماً مع الحالة النفسية والمادية للسيدة مريم عليها السلام في تلك اللحظة الحرجة.

دفع الاستيحاش: السيدة مريم كانت في حالة ذهول ونفسية منكسرة، فالنداء يشعر بالاهتمام والاعتناء، ويزيل وحشة الانفراد والعزلة الخانقة.

ويجلب الطمأنينة والأمان: صياغة الخطاب بـ (النداء) تضفي طابع الرسمية والأمان؛ فالصوت القريب الهادئ قد يشعر بالسرية، لكن النداء الواضح يمنح شعوراً بوجود سند قوي يحميها.

كذا تحويل الانتباه وتشتيت الأفكار السلبية: النداء العالي يقطع حبل الأفكار السوداوية والمخاوف (التي عبرت عنها بقولها: (ياليتني مت قبل هذا)، ويلفت ذهنها بالكامل إلى مصدر الصوت.

البعد البلاغي والأسلوبي: التفخيم والتعظيم: النداء يُستعمل في لغة العرب لتفخيم الأمر والاهتمام بالخبر الذي سيلقى بعدها وهو: (أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا). تناسب الفوقية والتحتية: يذكر البقاعي – رحمه الله - في "نظم الدرر" أن مجيء الصوت من (تحتها) فيه إشارة لطيفة إلى التواضع والأدب مع مكانتها؛ فالمولود أو الملك لم يأتِ من فوقها ليشعرها بالفوقية والسيطرة، بل جاء من أسفل ليكون بمثابة الخادم والمعين لها في كربها.

---

(1) – أخرجه النسائي (3939) واللفظ له، وأحمد (13079) ، وصححه الألباني في الجامع الصيح (3908) وفي تعليقه على سنن النسائي.

وأيضاً في ذلك تثبيت المرتعد: النداء المرتفع من الأسفل يملأ الفراغ المكاني، ويثبت فؤاد الخائف الذي يلتفت يمنة ويسرة خشية الفضيحة أو الهلاك.

يوضح ابن عاشور – رحمه الله - في "التحرير والتنوير" أن النداء لا يشترط فيه البُعد الجغرافي دائماً، بل يُستعمل لإظهار أهمية المقال، فالصوت المرتفع المُنقذ: لفظ (النداء) يدل على رفع الصوت.، ومريم كانت في حالة إعياء شديد وصدمة قد تمنعها من سماع الهمس أو الكلام الخافت، فاحتاج الأمر إلى صوت جهوري يخترق جدار حزنها الشديد.

وفي ذلك تأكيد الهوية: لو كان كلاماً عادياً لربما ظنته وهماً أو وسوسة شيطان، لكن (النداء) يحمل سمات الوضوح والبيان التي لا تدع مجالاً للشك.

وفي ذلك المعجزة الباهرة: سواء كان المنادي هو جبريل عليه السلام (من أسفل الوادي) أو عيسى عليه السلام (من تحت ثيابها أو سريرها)، فإن اختيار فعل (نادى) يبرهن على خرق العادة؛ فالصوت يخرج بجهارة ووضوح وقوة كاملة من مكان سفلي ضيق، وهو ما يبعث على اليقين التام بقدرة الله.

وفي ذلك الإعداد للمواجهة: هذا النداء القوي درب لسانها ومسامعها على تلقي المعجزات، لتنتقل من حالة الضعف والانهيار إلى حالة القوة الباردة التي مكنتها لاحقاً من مواجهة قومها والإشارة إلى طفلها بكل ثبات.

خلاصة ذلك أنّ السيدة مريم – عليها السلام - احتاجت إلى النداء (وهو الصوت المرتفع الرفيع) رغم قرب المسافة، لأن الحزن الشديد يصم الآذان ويغلق العقول؛ فجاء النداء ليوقظ مشاعرها، ويجذب انتباهها بالكامل، ويعظم البشارة في قلبها، مشعراً إياها بأنها محفوفة بعناية سماوية لا تحتاج معها إلى الهمس المستكين، بل إلى النداء الواثق الأمين[1].

المواجهة وإشارة البراءة: *﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29)﴾

﴿تَحْمِلُهُ﴾: الجملة الحالية تفيد الشجاعة والاطمئنان واليقين بالبراءة الإلهية؛ لم تخفه ولم تتوارَ به.

([1]) – انظر البغوي: تهذب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص730)، سيد قطب: في ظلال القرآن (ج4/ص2307)، ابن عاشور: التحرير والتنوير (ج4/ص56).

﴿شَيْئًا فَرِيًّا﴾: الفريّ هو الأمر العظيم المصنوع افتراءً وبطلاً، *﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾: الكناية بأنها تحمل النسب للصلحاء الشرفاء؛ إما تشبيهاً بصلابة هارون وتقواه، أو نسباً لرجل صالح في زمنهم؛ للتوبيخ وإشعارها بالصدمة.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أُريتُ في المَنامِ أنّي أنزِعُ بدَلوِ بَكْرةٍ على قَليبٍ، فجاءَ أبو بَكرٍ فنَزَعَ ذَنوبًا أو ذَنوبَينِ نَزعًا ضَعيفًا، واللهُ يَغفِرُ له، ثُمَّ جاءَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ فاستَحالَت غَربًا، فلَم أرَ عَبقَريًّا يَفري فَريَّه حتَّى رَوِيَ النَّاسُ، وضَرَبوا بعَطَنٍ[1].

والعَبْقَرِيُّ هو الحاذِق المُتقِنُ لِعَمَلِه، والمعنى: لمْ أَرَ في النَّاسِ سَيِّدًا عَظيمًا ورجُلًا قَوِيًّا، وإنسانًا حاذِقًا يَعمَلُ عمَلَه ويَقطَعُ قَطْعَه مِثلَ عُمَرَ، وتَأويلُ هذا: ما حَصَل مِن طُولِ خلافتِه رضِيَ اللهُ عنه، وكثرةِ انتفاعِ النَّاسِ بها؛ لطُولِها ولاتِّساعِ الإسلامِ وبلادِه، وما كان فيها مِن فَتْحٍ وخَيْرٍ، وكثرةِ الأموالِ وغيرِها مِنَ الغَنائِمِ، مع بناءِ الأمصارِ وإنشاءِ الدواوينِ.

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: لَمَّا قدِمتُ نَجرانَ سَألوني، فقالوا: إنَّكُم تَقرَؤونَ {يا أُختَ هارونَ}]مريم: 28 [، وموسى قَبلَ عيسى بكَذا وكَذا، فلَمَّا قدِمتُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَألتُه عن ذلك، فقال: إنَّهُم كانوا يُسَمُّونَ بأنبيائِهم والصَّالِحينَ قَبلَهُم [2].

*﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾: موجز أسلوبي بديع! الصمت باللسان والإشارة باليد؛ إحالة الخصوم إلى البرهان المجسد.

صرخة الحق في المهد: *﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33)﴾

إشراقة بلاغية: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾: أول كلمة قالها عيسى عليه السلام تنسف الشرك والعقائد المنحرفة في أصلها؛ بدأ بالعبودية لله قبل التنبؤ. يقول ابن تيمية: "قُدمت العبودية لتجريد التوحيد وردع المتغالين فيه".

*﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: عبر بالمواضي (آتاني، جعلني) لتحقق الوقوع واليقين الحتمي في القضاء الإلهي.

---

(1) – أخرجه البخاري (3682)، ومسلم(2393) .
(2) – أخرجه مسلم(2135) واللفظ له، والترمذي (3155)، وأحمد (18201)، والنسائي في ((السنن الكبرى) (11253)، واللفظ لهم.

*﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾: خصّ الأم بالذكر لعدم وجود الأب، وفي هذا تبرئة صارخة ومباشرة لشرّ التهمة عن أمه.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾: الربط البليغ بين الجبروت والشقاء؛ فكل جبار متكبر هو شقيٌّ في حقيقته النفسية والروحية.

*﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾: تعريف السلام بـ (الـ) الاستغراقية يُفيد السلام المطلق والأمان التام من الله في اللحظات الوجودية الثلاث الكبرى: (الميلاد، الموت، البعث).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لَم يَتَكَلَّمْ في المَهدِ إلَّا ثَلاثةٌ: عيسى ابنُ مَريَمَ، وصاحِبُ جُرَيج . . . لَم يَتَكَلَّمْ في المَهدِ إلَّا ثَلاثةٌ: عيسى ابنُ مَريَمَ، وصاحِبُ جُرَيج . . . قال: إنَّ ذاك الرَّجُلَ كانَ جَبَّارًا، فقُلتُ: اللهمَّ لا تَجعَلْني مِثلَه، وإنَّ هذه يقولونَ لها: زَنَيتِ ولَم تَزنِ، وسَرَقتِ ولَم تَسرِقْ، فقُلتُ: اللهمَّ اجعَلْني مِثلَها [1].

حسم العقيدة والتقرير الإلهي: *﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (36)﴾

إشراقة بلاغية: *﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾: اسم الإشارة "ذلك" للتعظيم والفصل الحاسم؛ هذا هو حجاب الحقيقة الذي لا زيف فيه.

﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾: القول الصدق الثابت الذي لا يأتيه الباطل؛ مفعول مطلق أو بدل أكد الحقيقة، ﴿يَمْتَرُونَ﴾: من المِرية وهي الشك والجدال الممقوت.

وقد نهي المؤمن عن المراء، فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أنا زعيمٌ ببيتٍ في ربَضِ الجنَّةِ لمن ترك المِراءَ وإن كان مُحقًّا وببيتٍ في وسطِ الجنَّةِ لمن ترك الكذِبَ وإن كان مازحًا وببيتٍ في أعلَى الجنَّةِ لمن حسُن خلقُه [2].

*﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾: امتناع ونفي، لا يليق بالله سبحانه؛ فالله منزه عن التكاثر والولد.

﴿كُن فَيَكُونُ﴾: اختصار القدرة في أوج إيجازها البلاغي.

وقد عرف نفسه سبحانه بسورة الصمد: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ(4) ﴾، وذلك من أعظم صفاته سبحانه،

([1]) – أخرجه البخاري (3436)، ومسلم.(2550) .

([2]) – أخرجه أبو داود (4800)، والدولابي في ((الكنى والأسماء)) (1643)، والطبراني (8/ 98) (7488)، والبيهقي (21218) واللفظ لهم، وحسن المنذري إسناده.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قبَاء فكان كلما أفتتح سورة يقرأ لهم في الصلاة يقرأ بها افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرغ منها ثم يقرأ سورة أخرى معها وكان يصنع ذلك في كل ركعة فكلمه أصحابه فقالوا إنك تقرأ بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بسورة أخرى فإما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى قال ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمكم بها فعلت وإن كرهتم تركتكم وكانوا يرونه أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره فلما أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر فقال يا فلان ما يمنعك مما يأمر به أصحابك وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة فقال يا رسول اللهِ إني أحبها فقال رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم إن حبها أدخلك الجنة[1].

الوعيد والتنذير بمشهد القيامة: *﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (38) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40)﴾

إشراقة بلاغية: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾: بين غلاةٍ جحدوه وطعنوا في أمه، وغلاةٍ ألّهوه وجعلوه ابن الله، وثالث ثلاثة، وأهل حق آمنوا بعبوديته ورسالته.

*﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾: صيغة تعجب بلاغية؛ أي ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم حين ينكشف الغطاء وتزول الغفلة! ولكن بعد فوات الأوان.

*﴿وأنذرهم يَوْمَ الْحَسْرَةِ إذ قضي الأمر﴾: فرغ من الحساب، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وذبح الموت؛ سمي يوم القيامة بيوم الحسرة لأن المحسن يتحسر ألا يكون ازداد، والمسيء يتحسر ألا يكون استعتب وتاب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يُؤْتَى بالموتِ كَبْشًا أَغَرَّ فَيوقَفُ بين الجَنَّةِ والنارِ، فيُقالُ، يا أهلَ الجنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرونَ، ويقال: يا أهلَ النارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرونَ، وَيَرَوْنَ أَنْ قد جاء الفَرَجُ، فَيُذْبَحُ، ويقالُ: خُلودٌ لا مَوْتَ[2].

([1]) – أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (774)، وأخرجه موصولاً الترمذي(2901) ، وصححه ابن العربي في عارضة الأحوذي.

([2]) – أخرجه البخاري (6545) مختصراً، والترمذي (2557) مطولاً بنحوه، وابن ماجه (4327) بنحوه، وأحمد (9449) واللفظ له.

وعنه رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يدخلُ الجنةَ أحدٌ إلا أُرِي مقعدَه من النارِ [لو أساء] ؛ ليزدادَ شكرًا، ولا يدخلُ النارَ أحدٌ إلا أُرِي مقعدَه من الجنةِ [لو أحسنَ] ؛ ليكونَ عليه حسرةً[1].

*﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾: ختام مهيب يعيد الأمور إلى حجمها الوجودي؛ فالملك والملكوت يرجع لمالكه الأصلي، والجميع سيزول ويبقى الجليل.

وفي سورة غافر: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16].

هكذا تتجلى في هذه المشاهد النورانية الوحدة الموضوعية والفواصل المنتظمة بجرَس (المد بالياء والنون: سويًّا، زكيًّا، قصيًّا، شقيًّا...) التي تضفي على السورة هيبة وخشوعًا وجمالاً وجلالاً حزيناً يلمس القلوب. إنها سيمفونية تنزلية تنقل العبد من عالم الأسباب الضيق إلى رحاب القدرة الإلهية المطلقة، معلنةً براءة العذراء، وعبودية المسيح، وتوحيد رب العالمين.

*(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا(51) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52)وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (58) ۞)

هذه الآيات الكريمات في هذا الدرس من سورة مريم هي سِفرٌ جليلُ في أدب الدعوة، وفلسفة الاعتزال والهداية، ونظام السُّلالات النبوية؛ حيث تنتقل السورة من

(1) – أخرجه البخاري(6569) ، وأبو داود (2212).

قصص العجائب الفردية (زكريا، يحيى، مريم، عيسى) إلى نماذج الاستقامة، والتبليغ، والمفاصلة الإيمانية، وصولاً إلى التعميم الكلي للذرية المباركة.

قصّة إبراهيم عليه السلام: أدب الدعوة والمفاصلة: *﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾

السياق والتناسب: بعد أن ذكر الله تعالى كراماته للأنبياء ممن عاصروه أو قربوا من عهد عيسى، ارتقى بالنظم إلى "أبي الأنبياء" شيخ الحنفاء، ليكون برهاناً على أن توحيد الله هو ديدن الرسل قاطبة.

افتُتحت الآية بـ "اذكر" بصيغة الأمر للنبي ﷺ، لِيَتْلُوَ خبر إبراهيم عليه السلام بين أيدي الناس مستشهداً به على أنّه أمّة وإمام في التوحيد.

أمّا وصفه بـ ﴿صِدِّيقًا﴾: بصيغة المبالغة (فِعّيل)، وتنكيرها للتعظيم؛ أي بالِغَ الصدق في عقيدته وقوله وعمله، صَدَّق بآيات الله حقيقةً حتى أسلم وجهه لله كلياً. قدّم الصِّدِّيقية على النبوة لأن الصدق هو المبدأ والأساس الذي قامت عليه النبوة.

ندائية الأبوة وحكمة الحوار: *﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾

افتتح خطابه بالتلطّف والتحبب: ﴿يَا أَبَتِ﴾ (التاء عوض عن ياء المتكلم، وفيها رقة وإظهارٌ للبنوة والتوقير).

إشراقة البلاغة والمنطق: بدأ بحجة عقلية بليغة تُسقط الشرك من أساسه. استعمل الاستفهام الإنكاري ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾، ونفى الصفات الثلاث متدرجاً: ﴿لَا يَسْمَعُ﴾: نفي أداة التلقي والاستجابة، ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾: نفي لرؤية العابد وحاله، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾: نفي مطلق للفاعلية والنفع. (ابن عاشور).

*﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾، الأدب الدعوي: لم يرمِ أباه بالجهل، بل قال بتهذيبٍ فائق: ﴿جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾؛ لم يقل "إنك جاهل وأنا عالم"، بل جعل العلم موهبة إلهية حَصَلَت له ولم تُتَحْ للأب بعد.

وكان هذا دأب نبينا صلى الله عليه وسلم مع قريش وغيرهم: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: أَرْسَلَتْ قريشٌ، عُتْبَةَ بنَ ربيعةَ - وهو رجلٌ رَزِينٌ هادىءٌ - فذهب إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: يا ابنَ أَخِي، إنك منا حيثُ قد علمتَ من المكانِ في النسبِ، وقد أَتَيْتَ قومَك بأمرٍ عظيمٍ فَرَّقْتَ به جماعتَهم، فاسمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عليك أمورًا لعلك تقبلُ بعضَها. إن كنتَ إنما تريدُ بهذا الأمرِ مالًا جَمَعْنا لك من أموالِنا حتى تكونَ أكثرَنا مالًا. وإن كنتَ تريدُ شَرَفًا سَوَّدْناكَ علينا فلا نَقْطَعُ أمرًا دونَك. وإن كنتَ تريدُ مُلْكًا مَلَّكْناكَ علينا. وإن كان هذا الذي يأتِيكَ رِئْيًا تَرَاه لا تستطيعُ رَدَّه عن نفسِك، طَلَبْنا لك الطِّبَّ، وبَذَلْنا فيه أموالَنا حتى تَبْرَأَ. فلما فرَغَ قولُه تلا رسولُ

اللهِ عليه الصلاةُ والسلامُ صَدْرَ سُورَةِ فُصِّلَتْ: حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا؛ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ. قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ، وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ[1]. وفي رواية قال له: أفرعت، أو أفرغت يا عم، ثم علا عليه الآيات.

الصراط السوي: الجواب المترتب على الاتباع ﴿أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي مستقيماً لا عوج فيه ولا هلكة.

*﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾، الكشف عن حقيقة الشرك: لم يكن آزر يعبد الشيطان بذاته، بل كان يعبد الأصنام، لكن لما كانت الأصنام بتزيين الشيطان، سمى الطاعة عبادة؛ لأن العبادة في حقيقتها هي الطاعة المطلقة (ابن تيمية).

المقابلة البلاغية: أورد اسم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ مقابل عصيان الشيطان، لبيان فظاعة الذنب؛ كيف يُعصى من عمّت رحمته كل شيء، ويُطاع من سُمّيت ماهيته بالعصيان؟

*﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾، الشفقة النبوية: عبر بـ ﴿أَخَافُ﴾ دلالة على المحبة والحرص، وبـ ﴿يَمَسَّكَ﴾ (المسّ هو أقل الاتصال) لترهيبه من أدنى العذاب، ونكّر ﴿عَذَابٌ﴾ للتهويل.

إشراقة بلاغية: ذكر العذاب مقترناً باسم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾؛ للتحذير من أن عذاب الرحمن إذا نزل بالغضب، فلا يدفعه أحد، لأن الرحمة نفسها لم تسع هذا المعاند. وفي المثل السائل: اتق شر الحليم إذا غضب.

فما كان من الأب إلاّ أن رد بالاستكبار القاسي: *﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾

جاء الرد عنيفاً ومباشراً: قدم الصفة ﴿أَرَاغِبٌ﴾ للاستنكار والتعجب من صنيعه.

جرّده من بنوّته فلم يقل "يا بني"، بل ناداه باسمه مجرداً ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾.

الوعيد بالعنف الفيزيائي والقطيعة: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ (بالقتيل أو بالحجارة أو بالسبّ القبيح)، وطلب هجره ﴿مَلِيًّا﴾ (زَمَناً طويلاً أو سالماً قبل أن أبطش بك).

الحلم النبوي والاعتزال: *﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾

([1]) – أخرجه البيهقي في ((دلائل النبوة)) (402/2)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (246/38) من حديث محمد بن كعب القرظي، وحسن الالباني إسناده.

أدب المقابلة: قابل الجفاء بالصفح ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ (سلام مفارقة وتوديع لا تحية)، متجلية فيه أخلاق الأنبياء.

اللطف بـ ﴿حَفِيًّا﴾: أي لطيفاً بي، يعودني بالإجابة والإحسان. ولهذا طمع في أن يُستجاب له في هداية أبيه واستغفاره له قبل أن يُؤمر بالبراءة منه.

*﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾

المفاصلة الشعورية والبدنية: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ بالبدن والعقيدة، والجمع بين الأشخاص والآلهة الباطلة ﴿وَمَا تَدْعُونَ﴾ لقطع كل سبب للشرك.

نصّ معظم المفسرين (ومنهم ابن كثير، والبغوي، وابن عاشور، والبقاعي) على أن اعتزال إبراهيم عليه السلام لقومه وهجرته الكبرى كانا متأخرين عن حادثة إلقائه في النار ونجاته منها.

فالنار كانت ذروة المحاكمة والمواجهة البشرية، والنجاة منها كانت إعلان المفاصلة النهائية والقطع السلوكي والمكاني الذي تلاه اعتزاله التام وهجرته إلى الشام.

فقد رتب المفسرون الأحداث ترتيباً سياقياً دقيقاً يتوافق مع النضج الدعوي: البغوي وابن كثير: ذكرا أن إبراهيم بعد خروجه من النار سالماً، أصر قومه على كفرهم فلم يؤمن له إلاّ لوط وسارة، وعندها قال: {إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي}، فكان الاعتزال الفعلي بالهجرة بعد العجز التام للقوم وثبوت المعجزة.

يشير ابن عاشور في التحرير والتنوير إلى أن الاعتزال مرّ بمراحل: اعتزال قلبي ودعوي، ثم اعتزال مكاني وهي الهجرة التي عقبت معجزة النار، لأن النار كشفت "الخسران المطلق" للقوم فحقّت عليهم المفاصلة.

ويرى البقاعي في نظم الدرر أن ترتيب الآيات في سورة مريم (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ...) جاء كالتتمة والمكافأة الإلهية بعد انتهاء جولات الصراع كلها والتي كانت النيران ذروتها الفاصلة.

التواضع في الدعاء: ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ... شَقِيًّا﴾ جاء بـ "عسى" هضماً للنفس وتواضعاً للربوبية، بخلاف المشركين الذين يقطعون بيقين باطل.

الجزاء والعوض الإلهي: *﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾

سنة العوض الإلهي: من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه. فلما اعتزل إبراهيم قومه وأباه وانفرد ليس معه غير زوجه سارة وابن عمه لوط عليهم السلام، وهب الله له الأنس بالذرية الصالحة النبوية (إسحاق ويعقوب)، فصارت النبوة في عقبه.

*﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾، اللسان العلي: استجاب الله دعوته القديمة ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء:84]؛ فجعل الذكر الحسن والمحبة الشاملة لإبراهيم وبنيه متفقاً عليها بين جميع الملل والأديان إلى يوم القيامة.

قال البغوي: {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} أَيْ: أَعْتَزِلُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ. قَالَ مُقَاتِلٌ: كَانَ اعْتِزَالُهُ إِيَّاهُمْ أَنَّهُ فَارَقَهُمْ مِنْ "كُوثَى" فَهَاجَرَ مِنْهَا إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، {وَأَدْعُو رَبِّي} أَيْ: أَعْبُدُ رَبِّي {عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا} أَيْ: عَسَى أَنْ لَا أَشْقَى بِدُعَائِهِ وَعِبَادَتِهِ، كَمَا تَشْقَوْنَ أَنْتُمْ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

وَقِيلَ: عَسَى أَنْ يُجِيبَنِي إِذَا دَعَوْتُهُ وَلَا يُخَيِّبَنِي. {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} فَذَهَبَ مُهَاجِرًا {وَهَبْنَا لَهُ} بَعْدَ الْهِجْرَةِ {إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} آنَسْنَا وَحْشَتَهُ مِنْ فِرَاقِ أهله وقومه ق وَأَقْرَرْنَا عَيْنَهُ، بِأَوْلَادٍ كِرَامٍ عَلَى الله عز وجل (وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا)، يعني: إسحاق يعقوب.

(وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا) قال الكلبي: المال والولد، (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) يعني: ثناء حسناً رفيعاً في كل أهل الأديان، فكلهم يتلونهم وينثون عليهم[1]..

ثم كان ذكر موسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام، فموسى عليه السلام – ذكره الله بالاصطفاء والتقريب: *﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾

القراءة اللغوية: قُرئت (مُخْلِصاً) باسم الفاعل (أخلص دينه لله)، وقُرئت (مُخْلَصاً) باسم المفعول (استخلصه الله واصطفاه). وكلاهما حقيقة؛ فمن أخلص لله، استخلصه الله.

*﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾، التكريم الإلهي: ﴿جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي الجانب الأيمن لموسى أو المبارك.

*﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾: أسلوب بديع في المناجاة؛ التقريب المعنوي للتشريف، و"نجياً" أي يناجي ربه بلا واسطة، وهي أعلى مراتب التشريف الإنساني.

*﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾، عظم الأخوة في الله: لم يطلب أحد لأحد عطية أعظم مما طلب موسى لهارون؛ إذ سأل الله أن يجعله نبياً ووزيراً، فوهبه الله ذلك رحمةً به.

إسماعيل عليه السلام – ذكره الله بصدق الوعد ودعوة أهله: *﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾

([1]) – انظر البغوي: تهذب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص734)،

تخصيص الخصلة: كل الأنبياء صادقو الوعد، لكن إسماعيل خصّ بها لأنه يُمثّل الذروة في وفائه بوعده لأبيه حين قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، فأسلم عنقه للذبح وفاءً بالوعد.

*﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾، المنهج الإصلاحي: إقامة الدين تبدأ من البيت ﴿أَهْلَهُ﴾.

الغاية العظمى: ﴿مَرْضِيًّا﴾؛ صيغة مفعول تدل على ثبوت رضا الله عنه وتسديده في أحواله كلها.

إدريس عليه السلام – ذكره الله سبحانه بالرفعة والمقام العلي: *﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾

المكان العلي: الرفعة حسية ومعنوية؛ حسية برَفْعه إلى السماء (كما ورد في أخباره وشرفه في رحلة الإسراء)، ومعنوية بعلو منزلته في الصديقين والأنبياء.

الآية الجامعة للذرية المباركة وأثر التلاوة: *﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ ۖ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾

السياق والتركيب الأسلوبي: اسم الإشارة ﴿أُولَٰئِكَ﴾: إشارة تعظيم لهؤلاء الأنبياء والرسل المذكورين في السورة.

التصنيف والتدرج في النسَب: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾: إدريس عليه السلام، ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾: إبراهيم عليه السلام، ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾: إسماعيل وإسحاق ويعقوب، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْرَائِيلَ﴾ (وهو يعقوب): موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى.

الصورة البيانية الخاشعة: *﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾:

الفعل ﴿خَرُّوا﴾: يُحيي صورة السقوط السريع غير التكلف، النابع من هيبة كلام الرحمن وجلاله؛ فلم يخروا بتمهل بل خرّوا هُوِيّاً وتعظيماً.

*جمع ﴿سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾:*جمع بين عبادة الجوارح (السجود) وعبادة القلوب والوجدان (الدموع والبكاء).

المقابلة بين الرسل ومَن يخلفهم: تُمثّل هذه الآية الذروة الشعورية في السورة؛ حيث يضع الله هذه السلسلة النورانية من خيرة البشرية المسبحين الخاشعين في كفة، ليُمهد للآية التي تليها مباشرة بالتحذير من إضاعة الصلاة واتباع الشهوات في الخَلَف.

*(۞ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59)إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ

شَيْئًا (60) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (63) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا(64) رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65) وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (70) وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (74) قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (75) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا(76))

تتنزّل هذه الآيات الكريمات في هذا الدرس من سورة مريم لتشكل ملحمة بيانية سياقية، تنتقل بالألواح البيانية من مشهد «التخلف الخالف» والتردي، إلى «مقامات المتقين» ونعيمهم، ثم تأخذ باللبّ في حجاج المنكرين للبعث وإطباق الحجة عليهم.

*﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾

الفاء عاطفة تفيد التعقيب السياقي بعد ذكر الأنبياء والمصطفين. الفرق الدقيق بين «خَلَف» (بفتح اللام: غلبت على الخلف الصالح) و«خَلْف» (بسكون اللام: غلبت على الخلف الطالح).

ذكر ذلك ابن الأعرابي وغيره، ولهذا جاء في الدعاء: اللهم اجعلنا خير خلف لخير سلف.

جُعِل إضاعة الصلاة قرين اتباع الشهوات، لأن الصلاة هي الناهية عن الفحشاء والمنكر، فلما أضاعوها انفرطت زمام شهواتهم.

ينبه ابن عاشور – رحمه الله - إلى أنّ التعبير بـ﴿أَضَاعُوا﴾ أبلغ من (تركوا)؛ لأن الإضاعة تشمل الإهمال والتفريط والتأخير عن الأوقات. و﴿غَيًّا﴾ نكرة لتكثير الهول، وقيل هو وادٍ في جهنم أعد للمفرطين كما يروى عن ابن مسعود رضي الله عنه.

*﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾: استثناء متصل يفتح باب الأمل. مرتب بنظام دقيق: التوبة (تخلية من الذنب) -> الإيمان (تحلية باليقين) -> العمل الصالح (تصديق عملي).

التدبر والسياق: يبرز سيد قطب – رحمه الله – أنّ رحمة الله الواسعة، بعد وعيد «الغَيّ»، يلمع فيها ضياء الاستثناء مباشرة كي لا يقع العبد في الإياس، وفي قوله ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ تأكيد على استيفاء الأجر دون نقص ولو كان مثقال ذرة.

*﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾، إشراقة بلاغية بيانية: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ بدل من الجنة، و«العدن» هو الإقامة والخلود. اقتران اسم ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ بالوعد يشعر بأن هذه الجنات مظهر من مظاهر رحمته جل وتعالى وتقدست أسماؤه.

النكتة الأسلوبية: قال ﴿مَأْتِيًّا﴾ ولم يقل (آتيًا)، لأن الوعد هو الذي يطلب العبد ويأتيه بالضرورة وحتمية الوقوع، كما يذكر البقاعي في تناسب الآيات.

*﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، البيان والأسلوب: الاستثناء في ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ استثناء منقطع (تأكيد المدح بما يشبه الذم)، أي لا يسمعون إلا الكلام الطيب السالم من كل عيب.

وهو أسلوب عربي معروف، قال النابغة الذبياني:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم .. بهن فلول من قراع الكتائب [1].

وقد رفع الله ذكر وشأن أساليب لغة العرب حين أنزل به القرآن، وهو ضمن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:10].

﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ تعبير بما يعهده البشر من أوقات النعيم والراحة لتريب الذهن، والجنة لا شمس فيها ولا ليل، بل هو مقياس لتتابع النعم واستمرارها دون انقطاع.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾: الإشارة بـ ﴿تِلْكَ﴾ للتعظيم والرفعة. التعبير بـ ﴿نُورِثُ﴾ استعارة تقتضي أن الجنة استحقاق راسخ أُعد للمتقين كإرث الميت لورثته، وفيه إشارة ابن القيم إلى أن المتقي يخلف أهل النار في منازلهم التي كانت لهم لو آمنوا.

*﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، سبب نزول هذه الآية سؤال النبي ﷺ جبريل عليه السلام لما استبطأه في النزول.

([1]) – انظر صفي الدين الحلي: شرح الكافية البديعية (ص305).

عن ابن عباس رضي الله عنه: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لجِبريلَ: ما يَمنَعُكَ أن تَزورَنا أكثَرَ ممَّا تَزورُنا، فنَزَلَت: {وما نَتَنَزَّلُ إلَّا بأمرِ رَبِّكَ له ما بينَ أيدينا وما خَلفَنا} [1].

وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ وَالْكَلْبِيُّ: احْتَبَسَ جِبْرِيلُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ سَأَلَهُ قَوْمُهُ عَنْ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَذِي الْقَرْنَيْنِ وَالرُّوحِ فَقَالَ: أُخْبِرُكُمْ غَدًا وَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ حَتَّى شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ أَيَّامٍ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَبْطَأْتَ عَلَيَّ حَتَّى سَاءَ ظَنِّي وَاشْتَقْتُ إِلَيْكَ" فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: إِنِّي كُنْتُ أَشْوَقَ وَلَكِنِّي عَبْدٌ مَأْمُورٌ إِذَا بُعِثْتُ نَزَلْتُ وَإِذَا حُبِسْتُ احْتَبَسْتُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ} وأَنْزَلَ: "وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى"[2].

وإذا صح هذا الحديث يكن قوله تعالى (وما كان ربك نسيا) قريب من قوله في سورة الضحى (ما ودعك ربك وما قلى) [الضحى:3]

الأسلوب والحصر: النفي والإيجاب ﴿وَمَا... إِلَّا﴾ يفيد الحصر المطلق للعبودية والانقياد لأمر الله. وقوله ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تنزيه للحق عن الذهول، واطمئنان لقلب النبي ﷺ أن تأخر الوحي ليس إهمالاً ولا نسياً.

وقريب من هذا قول الله تعالى في سورة الضحى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:3].

*﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾

إشراقة بلاغة الاستفهام: الاستدلال بربوبية الكون الشامل على وجوب العبادة.

الزيادة المبنية: ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ بزيادة الطاء وتضعيف البناء الدال على زيادة المعنى؛ أي تجشّم الصبر الكلي وحمل النفس عليه. والاستفهام في ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ استفهام إنكاري لنفي الشبيه والند والمساوي من كل وجه.

*﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾، إشراقة بلاغة أسلوب التعجيب: حكاية قول الكافر المنكر للبعث بطريقة الاستبعاد والتهكم، مجتمعةً فيها أدوات الاستفهامات التأكيدية والتراخي (أإذا، سوف).

---

(1) – أخرجه البخاري(4731) .
(2) – ذكره البغوي في تفسيره: انظر تهذيب (معالم التنزيل) (ص736) وعزاه في الحاشية للطبري وابن إسحاق

*﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾: المحاجة العقلية، أشار ابن تيمية – رحمه الله - إلى قياس الإعادة على الإبداء. من قدر على الإيجاد من العدم المحض ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ فهو على إعادة ما كان أقدر بالضرورة في العقول.

*﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، الرسم والتصوير أشار إليه سيد قطب – رحمه الله -: القسم بالربوبية المضافة إلى النبي ﷺ لتعظيمه. التعبير بـ ﴿جِثِيًّا﴾ (جثاة على الركب) يرسم مشهداً مجسماً للذل والجثو والرهبة المقيدة، حيث يُقرن المجرمون بشياطينهم في حالة هوان مطلق.

* ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾، إشراقة بلاغية: ﴿نَنزِعَنَّ﴾ النزع فيه شدة وجذب. ﴿شِيعَةٍ﴾ الفرقة المتفقون على الباطل. تبدأ العقوبة بالأعتى والأطغى فالأطغى، وفي اسم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ ههنا نكتة بديعة: أن عتوهم كان على من يعمهم برحمته، فكان طغيانهم أقبح وأبشع.

*﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾، التأكيد والجزم: استعمال ضمير الفصل والتأكيد بـ (اللام) ﴿لَنَحْنُ﴾ للدلالة على الإحاطة التامة والعدل المطلق؛ فالله يعلم ترتيب استحقاقهم للاصطلاء بالنار لا يشذ عن علمه أحد.

*﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾: الورود هو المرور على الصراط المنصوب على ظهر جهنم كما يقرر جمهرة المفسرين. والتعبير بـ ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ إشارة إلى قضاء نافذ لا مرد له.

عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: لا يموتُ لأحدٍ منَ المسلمينَ ثلاثةٌ منَ الولدِ فتمسَّهُ النَّارُ إلَّا تحلَّةَ القسمِ[1].

*﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾، المقابلة الأسلوبية: مقابلة بين النجاة الشريفة للمتقين، والإهمال والترك المذل للظالمين ﴿وَّنَذَرُ﴾ وهم بركَبِهم جثاة، نكالاً بما قدمت أيديهم.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يخرجُ منَ النَّارِ من كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ منَ الإيمان . قالَ أبو سعيدٍ : فمن شَكَّ فليقرأ إنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ [2].

عَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ وَيَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ

---

(1) – أخرجه مسلم (2632) وهذا لفظه، والبخاري (6656) باختلاف يسير، والترمذي (1060).
(2) – أخرجه الترمذي (2598)، وعبد الرزاق في ((التفسير)) (587)، وعبد الله بن أحمد في ((السنة)) (794) بلفظه.

وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ وَيَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ)[1]..

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ يَعْنِي مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ . قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : إِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي حَسَنًا وَنَعْلِي حَسَنَةً قَالَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطَرَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ). والحديث صححه الألباني في صحيح الترمذي[2]..

فهذا ثابت أيضا ، لكنه محمول عند أهل العلم على أنه : لا يدخلها دخول الكفار ، أي لا يخلد فيها ، مع أنه قد يدخلها ، جمعا بين هذا وبين النصوص الكثيرة التي تدل على أن من عصاة المؤمنين من يدخل النار مع وجود الإيمان في قلوبهم ، ثم يخرجون منها بالشفاعة وبغيرها. والله أعلم.

*﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾

النقد الاجتماعي والفكري: يصور مقياس المادين العاجز؛ فراراً من قوة الآيات وحجتها إلى التفاخر بالمظاهر والدور والنوادي ﴿نَدِيًّا﴾ (مجالس القوم)، مقايسين الحق والمقام بالثراء والوجاهة الدنيوية.

*﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾، الإبطال والتدمير: رد سنني تاريخي؛ ﴿كَمْ﴾ التكثيرية تُبطل حجتهم المادية. فالأثاث (المتاع) والرئي (المنظر والبهجة) لم يغنِ عن الأمم السالفة من الله شيئاً لما كذبوا.

*﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا...﴾، الأمر المضمون استدراجاً: صيغة الأمر ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ معناها الإمهال والاستدراج، امتحاناً وحجة، حتى إذا باغتهم الموعود (حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة) انهارت مقاييسهم وعرفوا من هو الأضعف جنداً والأشر مكاناً.

*﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾

خاتمة المقطع والتعقيب: مقابلة طردية لأهل الهدى؛ فكما أنّ أهل الضلال يمد لهم، فإن أهل الهدى يزادون هداية وتوفيقاً.

---

(1) – أخرجه البخاري (44)، ومسلم (193).
(2) – أخرجه الترمذي (1999) وأبو داود (4091) وابن ماجه(59)

الباقيات الصالحات: كل عمل صالح وخالص يتبقى أثره (ومنها الأذكار والأعمال)، وهي المقابلة الحقيقية للأثاث والرئي الزائل. ﴿خَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي عاقبة ومرجعاً في الآخرة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خُذُوا جُنَّتَكُمْ مِنَ النارِ؛ قولوا: سبحانَ اللهِ، و الحمدُ للهِ، ولَا إلهَ إلَّا اللهِ، واللهُ أكبرُ، فإنَّهنَّ يأتينَ يومَ القيامةِ مُقَدِّمَاتٍ وَمُعَقِّبَاتٍ وَمُجَنِّبَاتٍ، وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ[1].

*(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (78) كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (80) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (86) لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (87) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (88) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (93) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا(95) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا (96) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (97) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا(98))

تختتم سورة مريم بهذه الملحمة البيانية الخالدة، حيث يصل الحجاج الأسلوبي والسياقي إلى ذروته؛ فتتهدّم دعاوى الجاهلية والشرك أمام جلال الوحدانية، وترتسم ومضات المشاهد الختامية بين ذل المكذبين وجلال المتقين، في إيقاع صوتي وبلاغي يتأسر به اللب.

*﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾: التعجيب بالفاء والاستفهام ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾. نزل الاستفسار في العاص بن وائل السهمي مع خباب بن الأرت رضي الله عنه. التعبير بالمضارع المرفوع بالنون المؤكدة ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ يحكي غرور الكافر واستعلاءه، حيث قايس جزاء الآخرة بمقاييس الدنيا المادية.

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: كُنتُ قَينًا بمَكَّةَ، فعَمِلتُ للعاصِ بنِ وائِلٍ السَّهميِّ سَيفًا فجِئتُ أتَقاضاه، فقال: لا أُعطيكَ حتَّى تَكفُرَ بمُحَمَّدٍ، قُلتُ: لا أكفُرُ بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى يُميتَكَ اللهُ، ثُمَّ يُحييَكَ، قال: إذا أماتَني اللهُ ثُمَّ بَعَثَني

(1) –أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (10684)، والعقيلي في ((الضعفاء الكبير)) (17/3)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (4027) باختلاف يسير، وصحح الألباني إسناده.

ولي مالٌ وولَدٌ، فأنزَلَ اللهُ: {أفَرَأيتَ الذي كَفَرَ بآياتِنا وقال لَأوتَيَنَّ مالًا وولَدًا * أطَّلَعَ الغَيبَ أمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمَنِ عَهدًا}، قال: مَوثِقًا[1].

ولم يُرِدْ خبَّابٌ رضِيَ اللهُ عنه أنَّه إذا بعَثَهُ اللهُ بعْدَ الموتِ أنْ يَكفُرَ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه حينئذٍ يوَدُّ الَّذينَ كَفَروا لو كانوا مُسلِمين، ويتمنَّى العاصي بنُ وائلٍ وغيرُه أنْ لو كانوا تُرابًا ولم يَكونوا كفَّارًا، وبعْدَ البعثِ يَسْتوي يَقينُ المكذِّبِ مع يَقينِ المؤمنِ، ويَرتفِعُ الكفرُ وتَزولُ الشُّكوكِ، ولكنَّ غرَضَ خبَّابٍ رضِيَ اللهُ عنه مِن قولِه قطْعُ أمَلِ العاصي بنِ وائلٍ مِن أنْ يكفُرَ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فقال العاصي: «إذا أماتَني اللهُ ثُمَّ بعثَني وَلِي مالٌ وولَدٌ» أي: إنَّه سيكونُ لي في الجنَّةِ مالٌ وولَدٌ، فأُعطِيك حقَّ عَمِلكَ حينئذٍ، فأنْزَلَ اللهُ هذه الآيات.

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾، والحَقُّ أنَّ العاص بن وائل لم يطَّلِعْ على الغَيبِ، ولم يتَّخِذْ عند الرَّحمنِ عَهدًا، بل قال ذلك افتراءً على الله، ثُمَّ توعَّدَه اللهُ بالعذابِ في الآياتِ بعْدَها.

إشراقة بلاغية: استفهام إنكاري للتهكم والإبطال المزدوج؛ إذ لا سبيل للقطع بالعين والوعد إلا عبر طريقين لا ثالث لهما: العلم المطلق بالغيب، أو العهد والميثاق مع الله، وكلاهما منتفٍ في حقه بالضرورة.

*﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَدًّا﴾، الأسلوب والإيقاع: ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع وزجر حاسم يقطع دابر الادعاء. ﴿سَنَكْتُبُ﴾ السين للقرب والتحقيق، والتوكيدات المتوالية بالمصدر ﴿مَدًّا﴾ مشاكلة ومقابلة لقوله السابق (لأوتين)، فكما طغى بالمال الممدود، يُمدّ له في العذاب مداً.

*﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾، هنا ما يطلق عليه البلاغيون ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ استعارة بديعة؛ أي نسلبه ما افتخر به من مال ولد، فيبقى مجرداً، و«ما يقول» تعبر عن المقول ومضمونه. قوله ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ تجريد مطلق من الأنصار والمال والأولاد، في مشهد استخزاء وانفراد أمام الحاكم العدل.

*﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾: انتقال من فردية الكافر (العاص) إلى كليّة الشرك والجاهلية. علتّهم في اتخاذ الأصنام هي طلب العز والامتناع بها من عذاب الله.

*﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، أشراقة المقابلة والبلاغة: رادعة ثانية ﴿كَلَّا﴾ تنقض الغرض. فما أمّلوه من «العز» ينقلب إلى «ضدّ» ومعاداة يوم القيامة، حيث تتبرأ الآلهة منهم وتتحول عوناً عليهم في العذاب.

---

(1) – أخرجه البخاري (4733)، ومسلم (2795).

*﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: جرس الكلمة ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ (من أزيز القدر إذا اشتد غليانها)؛ يصور حركة الشياطين الحثيثة والدفع المزعج للكافرين نحو المعاصي، والتخلية بينهم وبين شياطينهم قدر جزائي لما تكبروا.

*﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾: تثبيت لقلب النبي ﷺ؛ والتعبير بـ ﴿نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ بإحصاء الأنفاس والأيام بصيغة المصدر المؤكد تنبيهاً على دقة الأجل المقضى وأن كل لحظة محسوبة لا تتخلف.

*﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾، الجماليات والتشريف: التعبير بـ ﴿وَفْدًا﴾ ركاباً مكرمين يُفدون إلى الملوك للحباء والكرامة، واقتران المحشر باسم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ دلالة على أن منزلتهم هي ضيافة الرحمن وفي رحمته.

إن علياً كان ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ هذه الآية: {يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا} فقال: ما أظن الوفد إلا الركب يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون أو يؤتون بنوق بيض لها أجنحة وعليها رحائل الذهب، شرك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان فيشربون من إحداهما فتغسل ما في بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً، وتجري عليهم نضرة النعيم فينتهون أو فيأتون باب الجنة فإذا حلقة من ياقوت حمراء على صفائح الذهب فيضربون بالحلقة على الصفحة فيسمع لها طنين يا علي؛ فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل فتبعث قيمها ليفتح له فإذا رآه خر له قال سلمة: أراه قال ساجداً فيقول ارفع رأسك فإنما أنا قيمك وكلت بأمرك، فيتبعه ويقفوا أثره فتستخف الحوراء العجلة فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه [1].

*﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾، المقابلة الصارخة (سيد قطب): مقابل الوفد المكرم، يُساق المجرمون كالأنعام الهائمة ﴿وِرْدًا﴾ عطاشاً يُراد بهم المورد القاتل وهو النار، شتّان بين سوق المكرمين وسوق الهالكين!

عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا كان يومُ القيامةِ أذَّنَ مُؤذِّنٌ: تتبَعُ كُلُّ أمَّةٍ ما كانت تعبُدُ، فلا يبقَى مَن كان يعبُدُ غيرَ اللهِ، مِن الأصنامِ والأنصابِ إلَّا يتساقطونَ في النَّارِ، حتى إذا لم يبقَ إلَّا مَن كان يعبُدُ اللهَ، بَرٌّ أو فاجِرٌ وغُبَّراتُ أهلِ الكِتابِ، فيُدعَى اليهودُ فيُقالُ لهم: مَن كنتم تعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ عزيرَ ابنَ اللهِ! فيُقالُ لهم: كذبتُم؛ ما اتخذَ اللهُ مِن صاحبةٍ ولا ولدٍ، فماذا تَبغونَ؟ فقالوا: عَطِشْنا رَبَّنا فاسْقِنا، فيُشارُ ألا تَرِدونَ؟ فيُحشَرونَ إلى النَّارِ كأنَّها سرابٌ

---

(1) – أخرجه ابن أبي الدنيا في ((صفة الجنة)) (6) واللفظ له، ويحيى بن سلام في ((تفسيره)) (1/ 244)، وابن أبي زمنين في ((تفسيره)) (3/ 106) بنحوه مختصرًا.، ورجح الشنقيطي في أضواء البيان وقفه على علي رضي الله عنه.

يَحطِمُ بَعضُها بعضًا، فيتَساقَطونَ في النَّارِ، ثم يُدعَى النَّصارى، فيُقالُ لهم: مَن كنتُم تعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ المسيحَ ابنَ اللهِ! فيُقالُ لهم: كذبتُم، ما اتخذَ اللهُ مِن صاحبةٍ ولا ولدٍ، فيُقالُ لهم: ماذا تبغونَ؟ فكذلك مِثل الأوَّلِ) أي مثل يهود [1]..

*﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾، الحصر والاستثناء: قطع لرجاء المشركين بآلهتهم؛ فلا شفاعة إلا بإذن الله ولمن شهد بالتوحيد والتزم بعهد الإيمان.

*﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا...﴾ التهويل والكونيات: ﴿إِدًّا﴾ أي أمراً عظيماً منبراً مستنكراً. يصور القرآن اهتزاز الوجود وغضبة الوجود المتناسق (السموات، الأرض، الجبال) لهذه الفِرية الشنيعة التي تنتهك جلال التوحيد والتنزيه.

*﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا...﴾، التنزيه الحاسم: ﴿وَمَا يَنبَغِي﴾ نفي لصلود الإمكان العقلي والذاتي؛ فالولادة تقتضي الجنسية والمشاكلة، والله هو الصمد الأحد.

العبودية الشاملة: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ شمول مطلق للخلائق. قوله ﴿أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ تأكيد لعلمه المحيط بالجزئيات والأنفاس، وتأتيهم الخاتمة الفردية المطلقة ﴿فَرْدًا﴾ حيث لا شريك ولا ولد ولا نصير.

*﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾، اللطيفة والسياق: بعد هول التنزيه ووعيد الظالمين، تنزل الآية كالندى. ﴿وُدًّا﴾ محبة يغرسها الله لهم في قلوب أهل السماء والأرض (كما في الحديث الصحيح). وتنكير «وُدًّا» للتعظيم والتنوع.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللهَ إذا أحَبَّ عَبدًا دَعا جِبريلَ فقال: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا فأحِبَّه، قال: فيُحِبُّه جِبريلُ، ثُمَّ يُنادي في السَّماءِ، فيَقولُ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فأحِبُّوه، فيُحِبُّه أهلُ السَّماءِ، قال: ثُمَّ يوضَعُ له القَبولُ في الأرضِ، وإذا أبغَضَ عَبدًا دَعا جِبريلَ فيَقولُ: إنِّي أُبغِضُ فُلانًا فأبغِضْه، قال: فيُبغِضُه جِبريلُ، ثُمَّ يُنادي في أهلِ السَّماءِ: إنَّ اللهَ يُبغِضُ فُلانًا فأبغِضوه، قال: فيُبغِضونَه، ثُمَّ توضَعُ له البَغضاءُ في الأرضِ[2].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقولُ اللهُ تعالى : من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربةِ ، وما تقرب إليّ عبدي بمثلِ أداءِ ما افترضته عليه ، ولا يزالُ عبدي يتقربُ إليّ بالنوافلِ حتى أحبَّه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به وبصرَه الذي يُبصِرُ به ويدَه التي يَبطشُ بها ورجلَه التي يمشي

(1) – أخرجه البخاري (5481)، ومسلم (183).
(2) – أخرجه مسلم (2637)، والبخاري (7485) باختلاف يسير.

بها ، فبي يسمعُ وبي يُبصرُ وبي يَبطشُ وبي يمشي ، ولئن سألني لأُعطينه ولئن استعاذني لأُعيذنه، وما ترددت في شيءٍ أنا فاعلُه ترددي في قبضِ نفسِ عبدي المؤمنِ يكرهُ الموتَ وأكرهُ مساءتَه ولابدَّ له منه [1].

*﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ البلاغة والنظام: بيان الحكمة من تيسير القرآن بلغة العرب؛ للجمع بين الوظيفتين: البشارة للمتقين، والإنذار لـ ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ وهم الخصماء شديدو الخصومة بالباطل.

*﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾

الختام والإيقاع الساكن (البقاعي): ختام جليل ينسجم مع جرس السورة. ﴿رِكْزًا﴾ الصوت الخفي الضئيل. استفهام إنكاري يجزم بالفناء التام للجبارين؛ ذهبت صولاتهم وأصواتهم وممالكهم، ومماحكاتهم لأولياء الله، ولم يبقَ إلا جلال العلي الكبير سبحانه.

*

سورة مريم

تسمية السورة

(سورة طه**):** وهو الاسم الأساسي والتوقيفي الذي اشتهرت به، مأخوذ من الحرفين المقطعين الواقعين في مطلعها، وقد يطلق على بعضهم أسماء أخرى مثل سورة الكليم أو سورة موسى لاشتمالها على قصة موسى عليه السلام وتكليم الله له.

وهي مكية بالاتفاق، وعدد آياتها 135 آية عند الكوفي، و134 عند البصري، و136 عند المدني والشامي، فهناك خلاف مشهور في عدّ آياتها بين علماء العِدد.

ما جاء في فضائل السورة

أن إسلام عمر رضي الله عنه كان بعد أن قرأ صحيفة فيها صدر من سورة طه، وسورة إذا الشمس كورت[2].

وصح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا : اللهمَّ أعِزَّ الإسلامَ بأحبِّ هذين الرجُلين إليك بأبي جهلٍ أو بعمرَ بنِ الخطابِ فكان أحبُّهما إلى اللهِ عمرَ بنَ الخطابِ [3].

بسم الله الرحمن الرحيم

---

(1) – هذا اللفظ ساقه ابن تيمة في الفتاوى (ج125/ص316)، وأخرجه البخاري (6502) باختلاف يسير.

(2) – ابن إسحاق: السير والمغازي (ص181)

(3) – أخرجه الترمذي (3681)، وأحمد (5696) واللفظ له، وصحح إسناده أحمد شاكر.

*(طه (1) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (3) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4) الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (5) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (6) وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (8) وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (9) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (16) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ(36)).

تتجلّى في ديباجة سورة ﴿طه﴾ في هذا الدرس الأول منها ملامح الإيناس الإلهي والرحمة، بدءًا من التسلية للنبي ﷺ وصولًا إلى قصة موسى عليه السلام التي تُشكّل مرآةً لرسالة النبي، حيث يلتقي التنسيق الصوتي بالمقاصد التكليفية في بناء بيانيّ بديع.

المقدمة التأسيسية: الرحمة والغاية من التنزيل *﴿طه﴾: الحروف المقطعة في فواتح السور للإعجاز والتنبيه، وفي قوله تعالى: ﴿طه﴾ نداء يبعث على السكينة والهدوء لمقام النبوة.

*﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾: نفيٌ لقصد الشقاء بالشرع. والشقاء هنا يشمل التعب النفسي والبدني؛ فالقرآن جاء رحمةً ولطفًا لا عبئًا ومكابدة.

قال ابن تيمية رحمه الله: سُورَةُ طَه " مَضْمُونُهَا تَخْفِيفُ أَمْرِ الْقُرْآنِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ كُتُبِهِ فَهِيَ " سُورَةُ كُتُبِهِ " - كَمَا أَنَّ مَرْيَمَ " سُورَةُ عِبَادِهِ وَرُسُلِهِ ".

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يلاقي عنتا من تكذيب قومه للقرآن، عن عائشة رضي الله عنها: يا رَسولَ اللهِ، هل أتى عليكَ يَومٌ كان أشَدَّ مِن يَومِ أُحُدٍ؟ فقال: لقد لَقيتُ مِن قَومِكِ، وكانَ أشَدُّ ما لَقيتُ منهم يَومَ العَقَبةِ، إذ عَرَضتُ نَفسي على ابنِ عبدِ ياليلَ بنِ عبدِ كُلالٍ، فلم يُجِبْني إلى ما أرَدتُ، فانطَلَقتُ وأنا مَهمومٌ على وجهي،

فلم أستَفِقْ إلَّا بقَرنِ الثَّعالِبِ، فرَفَعتُ رَأسي فإذا أنا بسَحابةٍ قد أظَلَّتني فنَظَرتُ فإذا فيها جِبريلُ، فناداني، فقال: إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قد سَمِعَ قَولَ قَومِكَ لَكَ، وما ردُّوا عليكَ، وقد بَعَثَ إليكَ مَلَكَ الجِبالِ لتَأمُرَه بما شِئتَ فيهم، قال: فناداني مَلَكُ الجِبالِ وسَلَّمَ عليَّ، ثُمَّ قال: يا مُحَمَّدُ، إنَّ اللهَ قد سَمِعَ قَولَ قَومِكَ لَكَ، وأنا مَلَكُ الجِبالِ وقد بَعَثَني رَبُّكَ إليكَ لتَأمُرَني بأمرِكَ، فما شِئتَ، إن شِئتَ أن أُطبِقَ عليهمُ الأخشَبَينِ، فقال له رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: بَل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ مِن أصلابِهم مَن يَعبُدُ اللهَ وحدَه لا يُشرِكُ به شيئًا[1].

قد تنوع عتاب ونهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن على تكذيب قومه له أو للقرآن مثل قوله تعالى :(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) [الكهف:6]، وقوله تعالى: (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) [الشعراء:3]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ، وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ، وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ، ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:33-36].

*﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾: استثناء منقطع أو مفرغ يُبيّن العلة الحقيقية للتنزيل؛ فهو أيقاظٌ للقلب الحي الذي يخشى جلال ربه، وهذا قريب من قوله تعالى: (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ) [الأنعام: 36].

*﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾: مفعول مطلق لمؤكدٍ محذوف، يربط بين عظمة المنزِل وعظمة الكتاب؛ فالذي يشرع لروحك وقبلك وبدنك هو الذي أبدع الكون.

*﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾: مقال الهيبة والرحمة؛ استواءُ يليق بجلاله وبكبريائه وعظمته سبحانه.

فسر الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم (الاستواء): بأنه العلو والارتفاع والاستقرار فوق العرش بلا تكييف ولا تمثيل، مؤكدين إثبات الصفة كما وردت مع تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين.
وذلك أولاً للمعنى اللغوي: فقد نُقل عن علماء التابعين تفسير الاستواء بالعلو والارتفاع، ومن ذلك ما قاله الإمام مجاهد بن جبر في قوله: (استوى) أي علا على العرش، وما نُقل عن أبي العالية والربيع بن أنس أن معناه: ارتفع.
ثم هم يثبتون الإيمان بالصفة وترك الخوض في الكيفية: حيث سلك أئمة السلف مسلك التسليم والإيمان بالمعنى المعلوم مع تفويض الكيفية إلى الله تعالى.

---

(1) – أخرجه مسلم (1795)، وأخرجه البخاري (3231) باختلاف يسير

سُئل الإمام مالك بن أنس – رحمه الله - عن الاستواء فقال مقولته الشهيرة: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة".

ونُقل عن **الإمام** أبي حنيفة النعمان إثبات العلو لله تعالى فوق عرشه، وكفْرُ من أنكر ذلك.

كما أشار الإمام أحمد بن حنبل إلى أن الاستواء يُفهم كما ذكر الله في كتابه، ولا يخضع لتصورات البشر.

كل ذلك **مع** تنزيه الله عن التجسيم والتشبيه، فقد أجمع أئمة السلف (كالإمام الشافعي وغيره) على أن إثبات الاستواء لله لا يعني الجلوس، أو الاستقرار المادي كاستقرار المخلوقات، بل هو علوٌّ يليق بجلال الله وعظمته.

*﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾: هيمنة مطلقة وملك شامل يستغرق الدقيق والجليل.

*﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾: تلطف في خطاب النبي؛ علم ربه سبحانه يتجاوز المجهور به إلى حديث النفس، بل وما لم يخطر على البال بعد (أخفى).

*﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾: المبدأ والأصل؛ إفراد الله بالألوهية وأحسن الأسماء، وكامل في الصفات، وكلمة التوحيد هي المبتدأ الذي تنطلق منه كل الرسالات.

هذه الآيات مهما قيل في تفسيرها، إلاّ أنّها تقول للقلب المستعد لتلقيها أعظم من ذلك، فقد صليت الجمعة يوماً في مسجد، فخطب الخطيب بقصة إسلام عمر رضي الله عنه بسبب تلاوته لهذه الآيات، ثم أخذ الخطيب يتولوها مترسلا من غير ترتيل، أما أنا فعشت مع قلب عمر، الآيات تذكره بالرحمن عظيم الرحمة، ويتذكر عمر أنّ وجهته كانت لقتل النبي صلى الله عليه سلم إن صحت الرواية، لأنه يظن أنّ محمداً يزعم أنّه نزل عليه القرآن لشقوة الناس وإرهاقهم وتفريقهم، فتواجهه هذه الآيات الواسعة، تمر به من خلجات نفسه حين ظنّ شقوة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم تصعد السورة بعمر رضي الله عنه إلى الرحمن على العرش استوى، ثم إلى سعة عمله ولطفه سبحانه، ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، وقد علم سر عمر فقلب نيته وهداه، وأنه سبحانه لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، فيرق قلب عمر رضي الله عنه فيسأل عن النبي صلى الله عليه وسلم ويفهم خباب ذلك فيدله على بيت الأرقم بن أبي الأرقم فيسلم عمر ويفوز بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهمَّ أعِزَّ الإسلامَ بأحبِّ هذين الرجُلين إليك بأبي جهلٍ أو بعمرَ بنِ الخطابِ)، ففاز بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

عشت مع قلب عمر رضي الله عنه مثلما عاش سيد قطب مع سورة النجم: بقدر ما يسعفني خيالي، وتحلق بي رؤاي، وبقدر ما تطيق مشاعري وأحاسيسي، وتابعته في الإحساس بتهافت أساطير المشركين حول شقوة النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن، كما عشت فرحة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بإسلام عمر رضي

الله عنهم أجمعين، وهتافات التكبير عشت كأني أمسعها مدوية، وعشت فرحة عمر بذلك، ولم أتمالك دموعي حين أخذ الخطيب يكرر: ففاز بها عمر رضي الله عنه[1].

النداء والإيناس في الوادي المقدس: *﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾: استفهام للتشويق والتسلية لقلب النبي ﷺ، يُمهّد للانتقال إلى تجربة نبي آخر واجه العنت نفسه.

*﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾: استئناس بالظاهر (النار) للوصول إلى الباطن (النور)؛ عبّر بـ (آنست) لمناسبة الوحشة في الصحراء.

وقال أَهْلُ التَّفْسِيرِ: لَمْ يَكُنِ الَّذِي رَآهُ مُوسَى نَارًا بَلْ كَانَ نُورًا ذُكِرَ بِلَفْظِ النَّارِ لِأَنَّ مُوسَى حَسِبَهُ نَارًا. وَقَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّهُ نُورُ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةَ وَغَيْرِهِمَا. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هِيَ النَّارُ بِعَيْنِهَا وَهِيَ إِحْدَى حُجُبِ اللَّهِ تَعَالَى، يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللَّهَ لا ينامُ ولا ينبغي لَه أن ينامَ يخفضُ القسطَ ويرفعُه حجابُه النُّورُ لَو كشفَها لأحرقت سبحاتُ وجهِه كلَّ شيءٍ أدرَكَه بصرُه ثمَّ قرأ أبو عبيدةَ أن بورِك من في النَّارِ ومن حولَها وسبحانَ اللَّهِ ربِّ العالمين. وفي رواية للبغي بسنده (حجابه النار) [2].

*﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ﴾: نداء مباشر يُسقط الغربة ويُثبت الأنس بالمُنادي.

*﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾: أدب الحضرة الإلهية؛ خلع النعلين رمز للتجرد والتواضع في موطن القدس.

*﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾: التكليف القائم على الاصطفاء؛ تقديم الضمير (أنا) لتأكيد مصدر التعظيم والتكريم.

*﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾: أصل التوحيد وغايته؛ الصلاة هي عماد الذكر والصلة المستمرة بالله.

*﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾: إثبات الجزاء والعدل الإلهي؛ وإخفاء الساعة لحكمة الابتلاء وحث النفس على دوام الاستعداد.

*﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾: تحذير من اتباع أهل الأهواء؛ فإن الصد عن الآخرة بداية السقوط (التردي).

---

(1) – وانظر سيد قطب: في ظلال القرآن (ج4/ص3420).
(2) – أخرجه ابن ماجه (196) واللفظ له، وأخرجه مسلم (179) باختلاف يسير، وانظر البغوي : تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص745).

إعداد الأداة والمؤنس المادي: *﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾: سؤال إيناس لا استعلام؛ ليأنس موسى بالكلام ويتهيأ للمعجزة.

*﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾: أطال موسى الحديث حبًا في استدامة الخطاب مع الله، متحدثًا عن منافعها العادية.

*﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾: أمر بالتخلي عما يعتمد عليه العبد، لتتحول الأداة العادية إلى معجزة.

*﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾: المفاجأة والانقلاب الخارق للمألوف لتثبيت الإيمان.

*﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾: التربية على الإقدام وزوال الخوف؛ فمن كان مع الله لا يخشى أدوات التغيير.

*﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ﴾: آية النور والنقاء الداخلي والظاهري، خالية من العيب أو المرض.

*﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾: العلة من المعجزات؛ تمكين القلب وترسيخ اليقين قبل مواجهة الطغيان.

التكليف الصعب والدعاء التأسيسي: *﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾: أمر المواجهة؛ الطغيان هو العلة التي تستوجب التدخل والرسالة.

*﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾: هنا يأتي الدعاء الخاشع، يطلب السعة النفسية؛ فالصدر الضيق لا يحتمل أعباء الدعوة ومواجهة الطغاة.

*﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾: طلب التوفيق الإلهي لأن الأسباب المادية وحدها لا تكفي.

«وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ «يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾: طلب أداة البيان والتركيز على الغاية (الفهم) لا مجرد الكلام.

*﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ *﴿هَارُونَ أَخِي﴾: أدب الاستعانة والشراكة؛ اختيار الأقرب والأنصح.

*﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾، *﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾: طلب التقوية والتعاضد في تحمل المسؤولية الكبرى.

*﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾، *﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾: الغاية الأولى والقصوى من الشراكة والدعوة هي إقامة ذكر الله والتسبيح.

*﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾: توسل بعلم الله وحالهما، وإظهار الافتقار الكامل لإحاطته.

*﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ الاستجابة الفورية والمطلقة من الرب الرحيم، لتكتمل دائرة الإيناس والتمكين.

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ(37) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41) اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (45) قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (46) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (48) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ(51) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (54) ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ(55)

هذه الآيات الكريمات في هذه الدرس من سورة طه تنزيل السَّكينة والتربية والإعداد العظيم؛ حيثُ ينسَجُ النص القرآني ملحمةً بيانية تُساق فيها ذكرياتُ العناية الإلهية بالنبي موسى عليه السلام، لتبني في نفسه الثقة، وتستلّ من قلبه الخوف، تمهيداً لمواجهة أعتى طغاة الأرض.

*﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ السباق والسياق: الآية عطفُ امتنان وتذكير بنعمٍ سالفة. بعد أن سأل موسى عليه السلام سُؤْلَه (شرح الصدر، وتيسير الأمر، وحل العقدة، وإشراك هارون)، أجابه الله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾، ثم جاءت هذه الآية لتقول له: إنّ اختيارنا لك وتكريمنا إياك بالنبوة ليس وليد اللحظة، بل هو امتدادٌ لرعايةٍ قديمة متجذرة.

إشراقة نحوية بلاغية: اللام في ﴿وَلَقَدْ﴾ واقعة في جواب قسم مقدّر، وتفيد مع "قد" تحقيق الواقعة وتثبيتها.

الفعل ﴿مَنَنَّا﴾ بإسناده إلى نون العظمة الإلهية، يرفع النعمة إلى ذروة الجلال والتفضّل المطلق.

قوله تعالى: ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ يُشعر بتعدّد المِنَن وتكرُّر العناية، وكأنّ حياته سلسلة من المِنَن المترابطة.

*﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾: "إذ" ظرفية متعلقة بـ ﴿مَنَنَّا﴾، لتحديد زمن الامتنان.

البيان والتفسير: المراد بـ الوحى هنا: الإلهام الفطري أو الرؤيا الصادقة أو إلقاء المعنى في القلب، وليس وحي التشريع.

الإبهام البلاغي في قوله ﴿مَا يُوحَىٰ﴾: يُسمّى في البلاغة "الإبهام للتعظيم"؛ أي أوحينا إليها أمراً جليلاً عظيماً لا تُحيط به الألفاظ، وفيه تهويل للموقف وإشعارٌ بحساسية الظرف (خوفاً من ذبح فرعون للولدان).

*﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾

إشراقة بلاغية: تكرار الفعل ﴿اقْذِفِيهِ﴾: القذف في اللغة هو الطرح بسرعة وشجاعة. وتكراره هنا مرتين ﴿فِي التَّابُوتِ﴾ ثم ﴿فِي الْيَمِّ﴾ يُجسّد سرعة الامتثال والتسليم المطلق في قلب الأم، مع نزع التردد والخوف.

*﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ﴾: الصيغة بصورة الأمر للجماد ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ لتسخير الطبيعة؛ فالبحر جماد بلا شعور في علم البشر، لكنه خلق من خلق خاضعٌ لأمره وإرادته سبحانه، فهو هنا خادمٌ مأمور بنقل الوديعة، كنقل الحوت ليونس عليه السلام للساحل ليعود لدعوة قومه، وغير ذلك من معجزات ربنا سبحانه.

السر العجيب في ﴿عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾: تقديم حُقّه تعالى ﴿عَدُوٌّ لِّي﴾ إشارة إلى أن عداوة فرعون لله بالإدّعاء والإلحاد هي الأصل، وعداوته لموسى فرعٌ عنها، وفي ذلك من التطمين لقلب أم موسى ولموسى فيما بعد ما لا يعلم قدره إلا الله جل وتعالى.

عناية الله تعالى وحسن تدبيره: سُقْتَ يا موسى إلى حِضنِ أعتى أعدائك، لتتربى في بيته وعلى نفقته!

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾: نكِرَت "محبة" للتفخيم والشيوع؛ أي محبةً خاصة، مهابةً ولطفاً، تحببك إلى كل من رآك حتى امرأة فرعون وفرعون نفسه، والمحبة تلقى في قلوب الناس من المولى جل وتعالى، فهي جندي من جنود الله، تماما كما يلقي الرعب في قوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:12].

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾: الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ عَيْنِي﴾ تمثيل للرعاية التامة والكلأة الدائمة، أي تُربى وتُغذّى وتحاط بمرأى مني وحفظٍ ملتصق بك.

*﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾

السياق والمشهدية: ينتقل المشهد إلى الحركة الحية: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾، مضارع يستحضر الصورة وكأنك تراها تخطبهم وتدُلّهم على أهل بيته.

المحطات الست في الآية: الرد والإرجاع: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، استجابة لوعد الله لأمه ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾.

النجاة من الغم: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾، وهو غم القتل الخطأ للقبطي والتمحيص الذاتي الذي أعقبه.

الابتلاء والتمحيص: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾، عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية سعيد بن جبير رحمه الله: أن الفتون وقوعه في محنة بعد محنة، خلصه الله منها (إلقاؤه في البحر، ثم التربي في بيت فرعون، ثم القتل والخروج، ثم الرعي وخلوة الصحاري... الخ).

المكث والغربة: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، خلوة بالصحراء، وتربية على الصبر والزهد.

الموعد الدقيق: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾، كلمة "قَدَر" هنا تنبض بالحكمة؛ لم تبتعد ولم تأتِ عبثاً، بل وفق توقيتٍ أزلي مقدر بدقة لملاقاة الوحي وتلقي الرسالة.

النداء الفردي: الخاتمة بـ ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ للتكريم وإشاعة الأنس.

*﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾: إشراقة بلاغية: هذه الآية قمة الامتنان والإعداد! الاصطناع: بالغة في الصنيع والإعداد؛ اخترتك وربيتك وصنعتك لتكون مُعَبِّراً عن إرادتي، وحاملاً لرسالتي، ومصفيّاً لخالص طاعتي.

قوله جل ونعالى: "لِنَفْسِي" يفيد التخصيص المطلق؛ فلا نصيب لغير الله في موسى؛ لا لدنيانا، ولا لملكٍ، ولا لشهوة.

*﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ بدلائلي، ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾: تجمع بين معنيين (الضعف والفتور) و(التراخي والتأخير) لغويًا وسياقيًا، ولا تعارض بينهما؛ فالجذر اللغوي واحد، والتواني في العمل ناشئ عن الونى في العزيمة. فالفعل (تَنِيَا) من المادة الثلاثية (و ن ي).

الونى: هو الضعف، والكلال، والفتور، وسقوط القوة. يُقال: ونى يني ونيًا، أي ضعف وفتر، والتواني: هو التباطؤ، والتقصير، والتمطيط، والتأخير مع القدرة على الفعل.

التواني (التأخير) هو الثمرة السلوكية المباشرة للونى (الضعف القلبي أو البدني). فعندما يضعف الاندفاع الداخلي (الونى)، يتأخر الامتثال الخارجي (التواني).

يركز البغوي – رحمه الله - على معنى الفتور والتقصير؛ فالخطاب لموسى وهارون عليهما السلام وهما ينطلقان إلى أعظم طاغية (فرعون). الذكر هنا هو السلاح، والونى فيه يعني الفشل؛ لأن مواجهة الطغيان تحتاج إلى مداومة اتصال بالله بلا انقطاع.

أمّا البقاعي – رحمه الله – في (نظم الدرر والتناسب السياقي) فيربط بين أول السورة ونهايتها: بدأت السورة بـ: (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى). وجاء الأمر هنا: (وَلَا تَنِيَا) لبيان أنّ الشقاء والضعف يزولان بملازمة الذكر.

كما أنّ النهي عن الونى جاء بعد الأمر بالذهاب (اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي)، وعُطف عليه بلا الناهية لتأكيد الاستمرارية، فالذهاب الحسي بـ "الآيات" يلزمه مدد روحي بـ "الذكر".

ويقرر ابن عاشور أن الونى هنا يتضمن التقصير والإبطاء معا، فالسر البلاغي: حُذف متعلق الفعل (فِي ذِكْرِي) فلم يقل "في أداء ذكري"، بل جعل الذكر ظرفًا محيطًا بهما.

النكتة البلاغية في صيغة المضارع المجزوم (تَنِيَا): تفيد النهي عن تجدد أي لحظة فتور أو تراخٍ طوال الرحلة إلى فرعون.

شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله -: يرى أن الذكر هنا ليس مجرد تسبيح باللسان، بل هو "استحضار عظمة الآمر، وتدبر دينه، والدعوة إليه". والونى فيه هو الغفلة. والغفلة عن الله في مواجهة الباطل تؤدي إلى الهزيمة النفسية قبل المادية.

أما تلميذه الإمام ابن القيم – رحمه الله - فيربط الآية بـ "أعمال القلوب". العبد يسير إلى الله بقوته وعزيمته، والونى هو "آفة العزيمة". إذا فترت العزيمة، تراخى البدن، وتأخرت الاستجابة (التواني)، لذا جعل الله الذكر عونًا على مشاق الدعوة؛ فالذكر يمنح القلب قوة هائلة تفك قيود الضعف والكسل.

أمّا سيد قطب – رحمه الله -(في ظلال القرآن): فيحلل المشهد بأسلوبه التصويري المشهود. موسى وهارون في مواجهة فرعون الطاغية المدجج بالسلاح والجنود، وهما أعزلان إلا من الإيمان. هنا يأتي المدد: (وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي)؛ فالذكر هو الصلة بالقدرة الكبرى، وهو الأداة الروحية التي تحول الضعف البشري إلى قوة صامدة تزلزل عروش الطغاة. لا مجال هنا للضعف (الونى) ولا للتأخير (التواني)، فالوقت وقت حسم.

وأخوه محمد قطب – رحمه الله – في كتابه (المنهج التربوي): يرى في الآية وقاية للنفس البشرية من الإحباط والوهن النفسي. الذكر يحمي الداعية من "الونى" (الكلال الروحي والجسدي) الناتج عن طول الطريق وقسوة المواجهة.

هكذا تكون الخلاصة البيانية أنّ الآية إعجاز يجمع معنيين في نسق واحد:لا تضعفا ولا تفتر قلوبكما وعزائمكما (الونى)، ولا تتأخرا ولا تبطئا في تبليغ رسالتي والجهر بحقي (التواني).

*﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، الموجِب والتكليف: تكرار الأمر ﴿اذْهَبَا﴾ للتأكيد وتوجيه التكليف المباشر للمأمورَيْن معاً.

العلة: ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، الطغيان هو مجاوزة الحد، ووصول فرعون لمرحلة ادعاء الربوبية يتطلب مواجهة الرسالة.

*﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾: ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾: الملاطفة في الدعوة، وسلوك باب الرفق والتذكير قبل استخدام الخصومة.

مع كون الله عالماً بأن فرعون لن يؤمن وسيغرق، إلا أنه أمرهما باللين ليكون ذلك سُنّةً للدعاة من بعدهما، ولإقامة الحجة الكاملة التي لا تترك للطاغية عذراً.

﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾: التذكر يعقب النظر والتفكر، والخشية تعقب الخوف من العاقبة.

*﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾، إشراقة بلاغية في النفسية البشرية: يفرُط: يتقدم بالعقوبة ويعجل بالبطش قبل سماع الحجة.

الخوف هنا هو خوف الطبيعة البشرية المجبولة على حذر الهلاك، وليس ضعفاً في الإيمان، و التعبير بـ ﴿رَبَّنَا﴾: توسل بربوبيته القادرة على حمايتهما.

*﴿قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾: إشراقة بلاغية: ﴿لَا تَخَافَا﴾: نهيٌ يصحبه تثبيتٌ وإزالةٌ لكل دواعي الخوف.

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾: هذه هي المعية الخاصة (معية النصرة والتأييد والحفظ)، وهي غير المعية العامة (معية العلم والإحاطة بكل الخلق).

﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾: صفتا السمع والبصر هنا في مقام الحراسة؛ أي أسمع ما يدور بينكم وبينه، وأرى تحركاته، فلا يصل إليكم بشرٍّ إلا بإذني.

*﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾

البيان والتفصيل: رسمٌ لخطة المواجهة وخطاب الرسالة: إعلان الصفة: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾.

المطلب الاجتماعي/السياسي: رفع الظلم والتثقيل عن بني إسرائيل ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا... وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾.

البرهان: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾، الخاتمة الحكيمة: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾؛ أسلوب التعريض الصريح فقد جاءا بما يفارق السلام على من لم يتبع الهدى، فالسلام مشروط باتباع الهدى.

*﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ الإيجاز والإنذار: جملة قاطعة فيها تحذير حاسم: العذاب مصير كل من كذّب بالحق بالقلب، وتولى عنه بالجوارح والأفعال.

*﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾، السياق الأسلوبي: تجاهَل فرعون كلامهما عن تحرير بني إسرائيل، وقفز إلى الأصل الفكري، وبدأ حواراً لطيفاً بريئا في ظاهره: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾؟ وإن كانت كلمت ﴿رَّبُّكُمَا﴾ تحمل ما يبدو واضحاً من كبريائه ، (وجعل الخطاب لموسى وحده ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ لإهمال هارون أو لوضوح أن موسى هو المتحدث الأصلي والمتبوع.

*﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ جليلة الكلم وجامعة الدلائل، قال المفسرون: هذه الآية إحدى أبدع جوامع الكلم في القرآن؛ جاوب بها موسى عن حقيقة الربوبية بأوجز لفظ وأعظم معنى:

﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾: خلق كل مخلوق بالصورة والشكل والتكوين الذي يناسب وظافته وجوده.

﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾: هداه إلى ما يصلح شأنه، وما يُقيمه في الحياة (هداية الدلالة والتسخير الفطري للطعام، والتناسل، والبقاء).

*﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ وهنا بدأ المكر والحياد عن الجواب: حين عجز فرعون عن رد هذه الحجة القاطعة الشاملة، أراد المغالطة وتحويل مسار المناظرة إلى الشبهات التاريخية: "ما حال الأمم السابقة التي كفرت وماتت؟ هل هي في النار؟" بقصد إثارة عواطف الناس وقومه ضدهما.

*﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ الحكمة والرد الثاقب:

لم يقع موسى في فخ الشبهة ولم ينشغل بالجدل التاريخي، بل ردّ الأمر إلى علم الله الشامل عدلاً وحكمةً:

﴿علمها عند ربي فِي كِتَابٍ﴾: محفوض في اللوح المحفوظ، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾: نفى الجهل والخطأ في بداية العلم، ﴿وَلَا يَنسَى﴾: نفى النسيان والغفلة عن العاقبة والجزاء.

*﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾

الانتقال من الاستدلال الإلهي إلى آيات الآفاق: التمهيد: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾؛ أصلها مهّد الأرض تمهيداً، جعلها كالمهد للصبي لتسكنوا عليها،

التسهيل: {وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ فجر الفجاج والطرق للترحال والتجارة، الإحياء: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾.

الالتفات البلاغي العجيب: تحول السياق من الحكاية عن موسى ﴿قَالَ عِلْمُهَا عند ربي في كتاب﴾ إلى كلام الله المباشر بالإعظام: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾، للتنبيه على عظمة الخالق وإظهار قدرة إيجاد الأصناف المتنوعة المتباينة من طعمٍ ولون ورائحة من ماءٍ واحد وتربة واحدة.

هنا في هذا الالتفات ما يسميه محمد قطب رحمه الله (تداخل) بين كلام الله وكلام موسى عليه السلام، فقد يكون موسى قاله مستمراً في ضمير الغائب، وليس الله بغائب سبحانه، ثم في القرآن عبر الله عنه على أنه من كلامه سبحانه [1]. كما أنّ الفعل المضارع يدل بلاغياً على التجدد والحضور واستحضار الصورة

*﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾، الإنعام والتعقيب الحكيم:

إباحة وامتنان: ﴿كُلُوا﴾ لكم، ﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ لمواشيكم، ﴿لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾: النهى جمع نُهية، وهي العقول؛ سميت بذلك لأنها "تنهى" صاحبها عن القبيح والضلال. وفي اختيار هذا الوصف بالذات تعريضٌ بفرعون وقومه، إذ لم ينتفعوا بهذه الدلائل لغياب العقل الرشيد الناهي عن الطغيان.

*﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾، الختام المذهل بالدورة الوجودية للإنسان:

تُختتم هذه المفاوضة والرحلة المفهومية بإرجاع الكائن البشري - مهما طغى واستكبر كفرعون - إلى أصله ومصيره المحتوم عبر ثلاث مراحل متتابعة:

([1]) – محمد قطب: دراسات قرآنية، (ص333) .

المبدأ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ (أصل نشأة آدم والطفل من طين الأرض وترابها)، المصير: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ (الموت والقبر)، المعاد: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ (البعث والنشور للحساب).

الإيجاز والإيقاع: اختصرت الآية قصة الوجود الإنساني بأكملها في تسع كلمات، تلجم كل طاغية، وتُذكّر الإنسان بضعفه وهوانه أمام قدرة باري الأنام!

(وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (60) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (61) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (62) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ(64) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (69) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (70) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (71) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (73) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (74) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ(76) وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (79) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (80) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (81) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ(82)

هذه الآيات الكريمات في هذا الدرس من سورة طه ترسم مشاهد ممتدة من صراع الحق والباطل، متجسدة في قصة موسى -عليه السلام- مع فرعون، وما تلاها

من نجاة بني إسرائيل. وتتميز هذه المشاهد بالبناءش المعجز، والتصوير الفني الأخّاذ، والتناسب المنسجم بين الألفاظ والفاصلة القرآنية.

*﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ السياق والأسلوب: افتتحت الآية باللام والمؤكدات ﴿وَلَقَدْ﴾ لتقرير حقيقة كفر فرعون العتيد. إسناد (أريناه) إلى العظمة الإلهية ﴿أَرَيْنَاهُ﴾ يبيّن إقامة الحجة الكاملة عليه.

إشراقة بلاغة بيانية: ﴿آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ الاستغراق هنا يشمل الآيات التسع المشهورة، أو جميع الدلائل والحجج التي أظهرها موسى. وجاء التعقيب بالفاء ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ ليدل على المبادرة إلى الرفض بغير تفكير؛ فـ التكذيب عمل القلب والعقل، والإباء عمل الجوارح والسلوك (امتناع واستكبار).

الربط مع التفسير: ينوه البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) إلى أن الجمع بين التكذيب والإباء ينفي أي عذر لفرعون، إذ أطاح بالحق علماً وعملاً.

*﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾، الأسلوب والتحليل اللفظي: استفهام إنكاري واستكباري ﴿أَجِئْتَنَا...﴾ يراد به الدندنة حول الوتر القومي والسياسي؛ حيث نسب فرعون لموسى الدافع السياسي (الجاه والسلطان) لإغراء قومه وتأليبهم ضد الحق.

إشراقة بلاغية: نسب الجلاء والتشريد إلى سحر موسى ﴿بِسِحْرِكَ﴾ لتقليل شأن المعجزة وتحويلها في أذهان الناس من آية إلهية إلى حيلة بشرية. ونقاط القوة الأسلوبية تتمثل في نداء اسم موسى مجرداً ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ لرفع تكلفة التكليف وإظهار الاستخفاف.

يشير سيد قطب – رحمه الله - إلى خُلق الطغاة القديم؛ تحويل معركة العقيدة إلى معركة وطن وسياسة لإثارة العواطف العامة.

*﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾

إشراقة بلاغية: الفاء في ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ﴾ للمباشرة والتحدي، وتأكيد الفعل باللام والنون المشددة يُبرز الثقة الزائفة والاستعراض السلطوي.

﴿مَكَانًا سُوًى﴾: قرأ يعقوب، وابن عامر عاصم وحم وخلف العاشر بضم السين، وقرأ الباقون بكسريها، ولا يختلف المعنى أي مستوياً لا يحجب أحداً عن أحد، أو وسطاً بين الفريقين وعدلاً لا إجحاف فيه. وهذا قمة الثقة الظاهرية من فرعون لإحكام الخناق -بزعمه- على موسى.

*﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾، البيان والأسلوب: لم يتلجلج موسى -عليه السلام-، بل حدد الموعد فوراً وبكل شجاعة.

سر التحديد (يوم الزينة + ضحى): يوم الزينة: يوم العيد والتعطيل لضمان كثرة الحضور.

الضحى: وقت بروز الشمس ووضوح الرؤية، فنور الحق لا يخشى ظلمات الليل أو الغبش.

هذا يذكرنا بغلام أصحاب الأخدود: فقال للمَلِكِ: إنَّكَ لَستَ بقاتِلي حتَّى تَفعَلَ ما آمُرُكَ به، قال: وما هو؟ قال: تَجمَعُ النَّاسَ في صَعيدٍ واحِدٍ، وتَصلُبُني على جِذعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهمًا مِن كِنانَتي، ثُمَّ ضَعِ السَّهمَ في كَبِدِ القَوسِ، ثُمَّ قُلْ: باسمِ اللهِ رَبِّ الغُلامِ، ثُمَّ ارمِني؛ فإنَّكَ إذا فعَلتَ ذلك قَتَلتَني [1]. فشهادة الناس للحق تغرس وتقوي الإيمان، وتظهر الباطل عارياً على حقيقته.

التأمل السياقي: يقول ابن عاشور – رحم الله - في التحرير والتنوير: اختيار الضحى يدل على ثقة موسى الكاملة بربه، فالباطل هو الذي يستتر بالظلمة والشبهات، أما الحق فيطلب ضوء النهار.

*﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾، الإيجاز والتصوير: ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ إيجاز بحذف المتعلَّق؛ أي انصرف إلى تدبير أمره.

البيان: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ عبر بـ "الكيد" عن كل ما أعده من سحرة وعدة وعتاد، وحشد للطاقات المادية والبشرية. ثم استخدم حرف التراخي ﴿ثُمَّ﴾ ليدل على المدة التي استغرقها تحشيد السحرة وجلبهم من المداين.

*﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾

الخطاب والإرشادات: نداء موسى توجه مباشرة للسحرة متجاوزاً فرعون ﴿وَيْلَكُمْ﴾ ليس شتيمة، بل هو تحذير وتخويف شفوق من العاقبة.

إشراقة بلاغية: ﴿فَيُسْحِتَكُم بعذاب﴾ من السَّحْت، وهو استئصال الشيء ومحوه كلياً حتى لا يبقى له أثر.

الخاتمة القانونية: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ جملة اعتراضية وتذييلية تقرر قانوناً إلهياً عاماً: الكذب على الله عاقبته الخسران المحتوم.

([1]) – أخرجه مسلم (3005)، وأحمد (23931)، والنسائي في ((الكبرى)) (11597)، وابن حبان (873) باختلاف يسير.

*﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾، البلاغة والتصوير: أثّرت كلمة موسى في نفوسهم فوراً، فالكلمة الصادقة لها سلطان. ﴿فَتَنَازَعُوا﴾ تدل على اضطراب صفوفهم والتردد الذي سرى في نفوسهم.

الإسرار: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ للتكتم على هذا الخلاف والضعف حتى لا يتسرب للعامة، وهذا من عادة أهل الباطل في كتمان ضعفهم الداخلي.

*﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾

التحليل اللغوي والتوجيه النحوي: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ جاءت قراءة الجمهور بتخفيف "إنْ" أو إعمالها على لغة كنانة/بلحارث بن كعب، والهدف هو التأكيد والتحريض.

الأسلوب البلاغي: استعان رؤساء السحرة والمتمردون بنفس الورقة السياسية التي طرحها فرعون (التهديد المادي والتجريف الثقافي): الإخراج من الأرض، و طمس "الطريقة المثلى" (أي نظام الحياة، والمكانة، والعقيدة السائدة).

*﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾، إشراقة بلاغية: ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ (بقطع الهمزة) أي أحكموا أمركم واجعلوه مجتمعاً متفقاً عليه دون خلل.

الأداء الجماعي: ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ المحيء في صف والانتظام يمنحان الباطل هيبة ورعباً في أعين الناس.

الشعار المادي: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ مقياس أهل الدنيا؛ العزة والقوة والغلبة هي المعيار الأحد للفلاح.

*﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾، الأسلوب والأدب الظاهري: التخيير بين البدء والانتظار يظهر ثقة السحرة بمهاراتهم، وربما كان نوعاً من الرعاية للبروتوكول أمام الجمهور.

*﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾، البيان والربط المعنوي: ثقة موسى تتجلى في قوله ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾؛ ترك لهم بادرة البدء ليكون الإبطال أعظم وأبهر.

البلاغة القرآنيّة الدقيقة: ﴿فَإِذَا﴾ الفجائية. ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ استخدم المبني للمجهول ليدل على أن الحركة لم تكن حقيقية، بل كانت خيالات وبصريات، والتعبير بـ ﴿تَسْعَىٰ﴾ فيه حيوية وسرعة حركة الحبال والعصي.

*﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾، التحليل النفسي والأسلوبي: ﴿فَأَوْجَسَ﴾ الإيجاس هو الخوف الخفي المضمر الذي لا يظهر على الجوارح.

تأخير الفاعل ﴿مُّوسَىٰ﴾: تقديم الخوف والمحل ﴿فِي نَفْسِهِ خِيفَةً﴾ للتشويق ولبيان أن هذا الخوف خوف فطري إنساني، خشي موسى أن يلتبس الأمر على الناس قبل أن يظهر آيته.

يوضح ابن القيم – ررحمه الله - أنّ الأنبياء بشر تعتريهم العوارض البشرية الفطرية، ولكن الميزة هي الثبات والاعتصام بالوحي.

*﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾، بلاغة الخطاب الإلهي: التثبيت الفوري العاجل. ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ جملة اسمية مؤكدة بـ (إنّ)، وضَمير الفصل (أنت)، وتعريف الخبر (الأعلى)؛ يفيد الحصر والتأكيد القاطع على الغلبة المطلقة للحق.

*﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾

البيان والتنكير التحقيري: ﴿أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ لم يقل "عصاك"، بل قال ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾ للتقليل من شأن الجرم الحسي للجماد أمام قدرة الله.

﴿تَلْقَفْ﴾ البناء الصرفي للكلمة يحيي بالحركة السريعة والابتلاع المتتابع المتلاحق، قرأ غير عاصم بتشديد القاف وفتح اللام، مما يبين كثرة كيدهم الذي جمعوا.

ثمّ يأتي التذييل المحكم: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ إطلاق للعموم والاطراد؛ فمهما أتيح للسحر من أسباب التمويه، فإن مآله البطلان.

*﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾، إشراقة بلاغية: ﴿فَأُلْقِيَ﴾ الفعل مبني لما لم يسم فاعله، فقد سجدوا بقوة الحق واليقين الذي نفذ إلى قلوبهم وخالط حشاشتها مخترقاً أجسادهم وألقى بهم على الأرض سجداً للحق بغير استئذان من أحد.

السر البياني في تقديم هارون: ﴿بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ مراعاة للفاصلة القرآنية أولاً، ولقطع الطريق على فرعون الذي قد يدعي أنه رب موسى أو رب الناس.

*﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ... فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾

النفسية الفرعونية والأسلوب: الوقاحة: ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ يظن أنّ القلوب والعقائد تحتاج إلى إذن سلطوي!

ادعاء المؤامرة: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ محاولة لتبرير الهزيمة أمام الجمهور بأنها "تمثيلية متفق عليها".

البطش: ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾ (يد يمنى مع رجل يسرى) للتمثيل والتشويه، كما أنّ حرف الجر ﴿فِي﴾: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ استخدم (في) بدل (على) لتشرب الصلب داخل الخشب والتصاق الجسد به حتى كأنه جزء من الجذع!

*﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

الانقلاب النفسي والبياني: التحول العجيب من طلب الأجر والزلفة لدى فرعون في الصباح إلى الاستهانة بملكه وعذابه في المساء.

الأسلوب: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ صيغة إهمال وتحقير لسلطانه، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ حصر وتزهيد في المدى الذي يملكه المستبد.

*﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾

المقابلة والموازنة:

إذاً كان هناك إكراه للسحرة وإعراء بالمكافآت ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ، قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف:114]، في سورة الشعراء زيادة توكيد: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراب:42].

فرعون قال: ﴿ولتعلمنّ أينا أشد عذابا وَأَبْقَىٰ﴾ لحكمه وعذابه، السحرة قالوا: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ردوا باللفظ نفسه لتفنيد دعواه وتثبيت وجهتهم مع الله الباقي.

*﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾، الأسلوب المائل للتقرير العقدي: تقرير لسنتين لا تتخلفان:

عاقبة المجرم: ﴿لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى﴾ تعبير عن العذاب المبتدئ المستمر الذي لا ينتهي بالموت ولا يرتاح بالحياة.

﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ، جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ، جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

عاقبة المؤمن: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طيبين﴾ [النحل:32] هنا ﴿الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ لـ ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي طهر نفسه من دنس الشرك والكبائر.

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال» :إن أهل الجنة ليَتَراءَوْنَ أهل الغرف من فوقهم كما تَراءَوْنَ الكوكب الدري الغابر في الأفق

من المشرق أو المغرب لِتفَاضُلِ ما بينهم «قالوا: يا رسول الله؛ تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال» :بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين[1].

*﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبحرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ﴾

البيان: ﴿فَاضْرِبْ﴾ ضرب البحر بالعصا، والنتيجة: ﴿طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أصل الأرض أرض بحر طينية، ولكن بقدرة الله أصبحت يابسة جافة فوراً لتسهيل العبور، ذهاب الخوف من العابرين.

الطمأنينة: ﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا﴾ (أن يدركك فرعون من خلفك) ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ (الغرق في البحر أمامك).

*﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ... وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾، التصوير البليغ والهول: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ الإبهام والتهويل في ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ يدل على عظمه وهوله بحيث يعجز الوصف عن الإحاطة به.

التهكم والتعقيب: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ تهكم بفرعون الذي كان يدعي ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، وهدد السحر بقوله : ﴿ولتعلمنّ أينا أشد عذابا وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿ولتعلمنّ أينا أشد عذابا وَأَبْقَىٰ﴾؛ فكشف القرآن حقيقة ما أوردهم إياه: هلاك الدنيا وضلال الآخرة.

*﴿يا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ، كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ، وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾

تحول الخطاب: التفات رباني بالامتنان على بني إسرائيل وإعادة تذكيرهم بالنعم الثلاث الكبرى: (النجاة، مواعدة الطور للتنزيل، رزق المن واللوى).

التحذير والسنة الإلهية: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ الطغيان في الرزق كفرانه ومجاوزة حلاله.

تدرج أسباب المغفرة: ختمت الآية بذروة البيان الإيماني لتشريع باب الأمل:

التوبة (الإقلاع). والإيمان (اليقين) والعمل الصالح (التطبيق) والاستقامة على الهداية ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ دون نكوص أو انتكاس.

نظرة عامة على تناسب الفواصل في هذا المقطع: تستشعر المدى النفسي الشديد في القافية المقيدة بـ (الألف المقصورة والمدود) مثل: (سُوًى، ضُحًى، افْتَرَى،

([1]) – متفق عليه: الخباري (3256)، ومسلم (2831).

الْمُثْلَى، اسْتَعْلَى، تَسْعَى، مُوسَى، الأَعْلَى، أَتَى...)، مما أضفى على المشاهد حركة متصاعدة، تناسبت كلياً مع احتدام الصراع بين ساحر ومؤمن، وظالم وجبار، ثم آلت إلى السكون والهدوء عند الحديث عن التوبة والرحمة.

(۞ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ(87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (91) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا(98) كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (99) مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (100) خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (101) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (103) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (104) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108) يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110) ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا(113) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114))

تتجلّى في هذا الدرس من سورة طه ملحمةٌ بيانية وأسلوبية وفريدة، تنتقل بالحقيقة الإيمانية من المشهد التاريخي (قصة موسى والسامري وبني إسرائيل) إلى تجريد المشهد الأخروي (قيام الساعة ومصير العباد)، وصولاً إلى التعقيب الرباني على طبيعة الوحي والمنهج.

المحور الأول: حوار المناجاة مرة أخرى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾

البيان والأسلوب: استفهام للتنبيه والاستحثاث لإظهار ما في نفس موسى، وليس حقيقة جهلٍ بالسبب؛ فالخطاب الإلهي يفيض بالأنس والنبل.

يذكر ابن عاشور – رحمه الله - أن العجلة هنا قُرنت بالحب والشوق، لكن الحق سبحانه يُعلّم نبيه أن العبادة والمناجاة تحكمها الضوابط والآجال.

*﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ إشراقة بلاغية: تقديم الجار والمجرور "إِلَيْكَ" يفيد القصر والحصر؛ أي: لم تعجلني رغبة في دنيا ولا فراراً من تكليف، بل شوقاً وحصراً للرضا فيك وحدك.

اللمحة النفسية: يبرز ابن القيم هنا أدب العبد المحب الذي يعتذر بصدق نيته، بيد أن النية الصالحة لا تغني عن إحكام رعاية الأمة وقائدهم.

يلاحظ أن الله جل وتعالى قبل عذر استعجال موسى عليه السلام، وإنما بين له ما أدى إليه استعجاله، ولو كان تأنى وجاء في الموعد المؤجل لكان خيراً له.

وهذا يذكرنا أن الله يقبل عذر أعظم الأخطاء والهفوات والمعاصي إذا كان العذر صحيحا: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه سلم: أنَّه ذَكَرَ رَجُلًا فيمَن سَلَفَ -أو فيمَن كان قَبلَكُم. قال: كَلِمةً يَعني- أعطاه اللهُ مالًا وولَدًا، فلَمَّا حَضَرَتِ الوفاةُ، قال لبَنيه: أيَّ أبٍ كُنتُ لَكُم؟ قالوا: خَيرَ أبٍ، قال: فإنَّه لم يَبتَئِر -أو لم يَبتَئِزْ- عِندَ اللهِ خَيرًا، وإن يَقدِرِ اللهُ عليه يُعَذِّبْه، فانظُروا إذا مُتُّ فأحرِقوني، حتَّى إذا صِرتُ فحمًا فاسحَقوني -أو قال: فاسحَكوني-، فإذا كان يَومُ ريحٍ عاصِفٍ فأذْرُوني فيها، فقال نَبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فأخَذَ مَواثيقَهم على ذلك ورَبِّي، ففَعَلوا، ثُمَّ أذْرَوه في يَومٍ عاصِفٍ، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: كُنْ، فإذا هو رَجُلٌ قائِمٌ، قال اللهُ: أيْ عَبدي، ما حَمَلَك على أن فعَلتَ ما فعَلتَ؟ قال: مَخافَتُك -أو فرَقٌ مِنك- قال: فما تَلافاه أن رَحِمَه عِندَها. وقال مَرَّةً أُخرى: فما تَلافاه غَيرُها، فحَدَّثتُ به أبا عُثمانَ، فقال: سَمِعتُ هذا مِن سَلمانَ غيرَ أنَّه زادَ فيه: أذْرُوني في البَحرِ، أو كما حَدَّثَ [1]. فنسأل الله أن يعفو عنا بمنه وكرمه وإن لم تسعفنا معاذيرنا.

(1) – أخرجه البخاري (7508)، ومسلم (2757).

*﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾،الأسلوب والمناسبة: مفاجأة حاسمة تقطع نشوة الأنس بمسؤولية الواقع. أُسندت الفتنة إلى الله تعالي اختباراً وبلاءً، وأُسند الإضلال إلى السامري كسباً ومباشرة.

التدبر: يلاحظ البقاعي – رحمه الله - التناسب بين عجلة موسى الشديدة للّقاء ربه، وبين الانتكاسة السريعة لقومه بمجرد غيابه؛ مما يُظهر هشاشة الإيمان السطحي المبني على حضور الكاريزما لا الثبات على المبدأ. عموماً أمر سرعة الإنتكاسة محير، نسأل الله الثبات.

وقد حدث النبي صلى الله عليه وسلم عن المسيح الدجال، وأمرنا بالاستعاذة منه دبر كل صلاة، لأنه فتنته عز من يثبت أمامها، وأمرنا إن أدركنا فتنته أن نفر منه للجبال.

عن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه قال: ذَكَرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الدَّجَّالَ ذاتَ غَداةٍ، فخَفَّضَ فيه ورَفَّعَ، حتَّى ظَنَنَّاه في طائِفةِ النَّخلِ، فلَمَّا رُحنا إليه عَرَفَ ذلك فينا، فقال: ما شَأنُكُم؟ قُلنا: يا رَسولَ اللهِ، ذَكَرتَ الدَّجَّالَ غَداةً، فخَفَّضتَ فيه ورَفَّعتَ، حتَّى ظَنَنَّاه في طائِفةِ النَّخلِ، فقال: غَيرُ الدَّجَّالِ أخوَفُني علَيكُم، إن يَخرُجْ وأنا فيكُم، فأنا حَجيجُه دونَكُم، وإن يَخرُجْ ولَستُ فيكُم فامرُؤٌ حَجيجُ نَفسِه، واللهُ خَليفَتي على كُلِّ مُسلِمٍ، إنَّه شابٌّ قَطَطٌ، عَينُه طافِئةٌ، كَأنِّي أُشَبِّهُه بعَبدِ العُزَّى بنِ قَطَنٍ، فمَن أدرَكَه مِنكُم فليَقرَأْ عليه فواتِحَ سورةِ الكَهفِ [1]..

وعن أم شريك رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم: ليفرَّنَّ النَّاسُ منَ الدَّجَّالِ حتَّى يلحَقوا بالجبالِ. قالت أمُّ شريكٍ: يا رسولَ اللَّهِ فأينَ العربُ يومئذٍ؟ قالَ: هم قليلٌ[2].

المحور الثاني: المواجهة والاعتذار الواهي: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾

إشراقة بلاغية: "غَضْبَانَ" للمواجهة الشديدة، و*"أَسِفًا"* للحزن المكتوم والتحسر. ثم تتوالى الاستفهامات الإنكارية الوبائية:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾.

([1]) – أخرجه مسلم (2937)، والترمذي (2240)، وابن ماجه (4075) جميعا بلفظه، وأبو داود (4321) بنحوه مختصرا.

([2]) – أأخرجه مسلم (2945)، والترمذي (3930) واللفظ له، وأحمد(27620)

يصور سيد قطب – رحمه الله - هذه اللحظة بأسلوبها النابض: هول الصدمة التي تعتلج في صدر النبي الذي ترك قومه للتوّ بعد معجزة فلق البحر، فيراهم يعكفون على صنم صاغوه بأيديهم!

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾

قراءة "بِمَلْكِنَا" (بفتح الميم أو ضمها أو كسرها) تشير إلى نفي القدرة الذاتية والتنصل من المسؤولية، وهو أسلوب الضعفاء.

يوضح محمد قطب – رحمه الله - هنا طبيعة "النفس الاستعبادية"؛ تحرجوا من حمل حُليّ فرعون (الأوزار) بزعم الورع الكاذب، وسقطوا في أشنع أنواع الشرك (عبادة العجل)! إنه تناقض المنطق المنحرف.

*﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾، البيان: تنكير "عِجْلًا جَسَدًا" للتظليم والتحقير. وقوله "فَنَسِيَ" يحتمل معنيين بديعين: إما أنهم يعنون: أنّ موسى نسي ربه فذهب يطلبه في الجبل، أو نسي السامري عهده وإيمانه.

«وَاتَّخَذَ السَّامِرِيُّ مِنْهَا {عِجْلًا} وَأَلْقَى فِي فَمِهِ مِنْ تُرَابِ أَثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَتَحَوَّلَ عِجْلًا {جَسَدًا} حَيًّا وَلَحْمًا وَدَمًا {لَهُ خُوَارٌ} وَهُوَ صَوْتُ الْبَقَرِ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ، وَجَمَاعَةِ أَهْلِ التَّفْسِيرِ» [1].

وقيل: بل كذب السامري فلم ير الملك ولا أثر الملك، بل كان عجل الحلي تدخله الريح من جهة وتخرج من أخرى فيصدر خواراً.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، البلاغة والنقد العقلي: تعقيب قرآني يُسقط وهم الوثنية بلمحة عقلية قاطعة. الإله الحق كائن عالم متكلم نفعيّ، فكيف يُعبد من لا يملك جواباً ولا حراكاً؟

وهذه هي نفس الحجة التي استخدمها إبراهيم عليه السلام فهز قناعات قومه حين كسر الأصنام ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ، فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء:62-64]

المحور الثالث: الموقف المصلحي والاستجابة المعكوسة: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾

([1]) – البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص754)

البيان: التوكيد بـ "وَلَقَدْ" ونداء التودد "يَا قَوْمِ" والتذكير باسم الله "الرَّحْمَٰنُ" تبرئة لهارون عليه السلام من التقصير، وتبيان لأسلوب الدعوة الناصح اللطيف.

*﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ الأسلوب: حرف النفي "لَنْ" يفيد الأبديّة التأكيدية الموقتة، مما يدل على العناد والتصلب والتعلق ببديل الشريعة.

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾، الأسلوب: الحوار الشديد من موسى نحو أخيه؛ غضباً لله وحيرة من هذا الانحراف العظيم.

*﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾

البيان واللطائف: ناداه بـ "يَا ابْنَ أُمَّ" بدلاً من "يا أخي" ليستعطف قلبه ويستحضر حنان الأمومة.

التدبر السياسي والاجتماعي: وقف ابن تيمية وابن عاشور – رحمهما الله - عند هذه الآية ملياً: استدلوا بها على فقه "الموازنة بين المصالح والمفاسد"؛ إذ آثر هارون الصبر والمحافظة على وحدة الجماعة حذار الفتنة الشاملة والقتال الداخلي حتى يعود موسى ليعالج الأزمة بحسم.

عن ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليس الخبرُ كالمعايَنَةِ، إنَّ اللهَ تعالى أخبرَ موسى بما صنع قومُهُ في العجلِ، فلَمْ يُلْقِ الألواحَ، فلما عايَنَ ما صنعوا ، أَلْقَى الأَلْوَاح فانكسَرَتْ[1].

المحور الرابع: محاكمة السامري وتفكيك الوثن: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾

الأسلوب: انتقال بالخطاب إلى رأس الفتنة؛ السؤال بـ "مَا خَطْبُكَ" إشارة إلى أن ما فعله أمر هول جليل ومستنكر.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾

التحليل النفسي والبياني: التعبير بـ "سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي" يُفصح عن طبيعة النفس الأمارة بالسوء عندما تمتزج بالذكاء والخبرة العالية، فتسخر المعرفة البصرية الخارقة للتضليل الديني بدلاً من الهداية.

---

(1) – أخرجه أحمد (2447) واللفظ له، وابن حبان (6213)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (25) باختلاف يسير

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ، وإن لك موعدا لن تخلفه، وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾

العقوبة المادية والمعنوية: النفي الاجتماعي: عقوبة نفسية وصحية أبدية (عزل نفسي ووحدة قاتلة: "لَا مِسَاسَ").

سحق الصنم: التدرج البلاغي والفعلي: التحريق، ثم النسف، ثم الطرح في البحر.

يقول ابن القيم – حمه الله: كما حرقوا قلوب الموحدين بالشرك، وحوّلوا الذهب الخالص إلى باطل، طهّر الله الأرض بإحراق باطلهم وذره هباءً ذائباً في الماء.

*﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، الختام والتأصيل: قصر الألوهية التامة على الله وحده؛ فالإله ليس جسداً له خوار، بل هو "الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا".

المحور الخامس: المشهد الأخروي والهول الأعظم: ينتقل السياق نقلة أسلوبية ومفهومية حاسمة؛ من الجزئي التاريخي إلى الكلي الخالد:

*﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾، يعني القرآن، والسنة:

عن أبي رافع مولى النبي صلى الله عليه وسلم، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا أُلْفِيَنَّ أحدَكُمْ متكئًا على أريكتِهِ يأتيهِ أمرٌ مما أمرتُ بهِ أو نهيتُ عنهُ فيقولُ: لا أدري. ما وجدنَا في كتابِ اللهِ اتبعناهُ[1].

*﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾، هذه الآية وأمثالها تقلب مفهوم "الملكية" رأسًا على عقب يوم القيامة لا نملك ما جمعنا من حطام الدنيا، إنما نملك ما فعلنا..!!" "حقيبة الرحيل" تبرز الذنوب والمعاصي في صورة ثقل تجسيمي "حِمْلًا" يحمله المعرض فوق ظهره، والتعبير بـ "خَالِدِينَ فِيهِ" يدل على استمرار الشقاء المادي والنفسي، ومعناها قريب من قوله تعالى *﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:14].

*﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين ﴿يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ التهويل في قوله: "زُرْقًا": شخوص الأبصار وغشاوة العيون من شدة الرعب والعطش.

"يَتَخَافَتُونَ" و "هَمْسًا": تلاشي الصخب والدعاوى العريضة في الدنيا، حتى لا تسمع إلاّ همساً خافتاً من هول الموقف.

---

(1) – أخرجه أبو داود (4605)، والترمذي (2663)، وابن ماجة (13) واللفظ لهم، وقال الألباني: إسناده صحيح.

تناقض تقديرهم للزمان ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ ثم ﴿نحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أوفاهم عقلاً، وأعدلهم قولاً: ﴿إن لبثتم إِلَّا يَوْمًا﴾ يعكس ضياع القيمة الحقيقية للدنيا في أعينهم عند معاينة الأبد، فقد قصر طول مكثهم في الدنيا في أعينهم ف جنب ما استقبلهم من أهوال يوم القيامة.

*﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَأَلَ رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: كَيْفَ تَكُونُ الْجِبَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الآية، والنسف هو القلع يعني يَقْلَعُهَا مِنْ أَصْلِهَا وَيَجْعَلُهَا هَبَاءً منثورا [1].

السبك اللغوي: الجبال الصلبة الشامخة تتحول إلى أرض ملساء مستوية "قَاعًا صَفْصَفًا". خلوها من "عِوَجًا" (المائل الأفق) و*"أَمْتًا"* (الانخفاض والارتفاع) تصوير إلهي لإعادة تشكيل المادة والكون.

*﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

"عَنَتِ الْوُجُوهُ": خضعت واستسلمت وأذلّت كذل الأسير. الاقتران باسميه "الْحَيِّ الْقَيُّومِ" إشارة إلى إحاطة القيومية وثبات الحياة المطلقة لله، وفناء كل ما عداه.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾

المقابلة الميزانية: مقابلة بديعة بين الخيبة المطلقة للظالم، والأمن التام للمؤمن؛ حيث ينفي عنه "الظلم" (أن يُزاد عليه من سيئات غيره) و*"الهضم"* (أن يُنقض من حسنات نفسه).

المحور السادس: خاتمة التنزيل والمنهج: *﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾

المقاصد: بيان الغاية من تنويع القصص والوعيد والبيان العربي؛ وهو استثارة تقوى القلوب أو إحداث الفكر والاعتبار.

*﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

(1) – انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (756) .

ختام الدرس والتناسب الأسلوبي: هكذا يعود السياق في تناسب عجيب مع أول النص؛ فكما نُهي موسى عن العجلة في التماس المناجاة قبل تمام الموعد (في الآية 83)، يُنهى النبي محمد ﷺ عن العجلة في تلقي الوحي واستظهاره قبل تمام نزوّله.

التنزيه بـ ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾: إعلاء لمقام الربوبية والملك الممتد من التحكم في التاريخ (المواجهة مع السامري) إلى ملكوت القيامة والوحي.

الدعاء الخالد: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾: إقرار بطلان الإحاطة الإنسانية بالعلم، وفتح باب السعي والتواضع المعرفي أمام النبوة والإنسانية إلى أبد الآبدين.

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (116) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (119) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (122) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (126) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (127) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (128) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (129) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (130) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (131) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (132) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (133) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (134) قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ(135))

هذا الدرس هو الخاتمةُ لسورة "طه" من أعظم المقاطع القرآنية هندسةً في السياق والتناسب، حيث يلتقي فيها البناء التفسيري بالتحليل اللساني والأسلوبي، لتنسج آياته معالجةً إيمانية لشبهات المكذبين وتثبيتًا لقلب النبي ﷺ المؤمنين.

المحور الأول: قصة آدم عليه السلام: *﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾

السياق والأسلوب: افتتاح المقطع بـ "الواو" للاستئناف والربط بما سبقها من تحذير النبي ﷺ والمؤمنين من العجلة؛ فجاءت القصة توضيحًا لطبيعة الجبلّة البشرية.

نكّر "عَزْمًا" لإفادة الشمول، أي: لم نجد له عزماً راسخاً يمنعه من مواقعة النهي أمام وسوسة الشيطان. والنسيان هنا ليس الذهول المجرد، بل ترك العمل بالعهد (كما يرى ابن تيمية وابن القيم) – رحمهما الله-.

*﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾، التحليل البياني: السرعة في الفاء "فَسَجَدُوا" تفيد امتثال الملائكة المطلق، والاستثناء بـ "إِلَّا إِبْلِيسَ" أعقبه بفعل "أَبَىٰ" لإبراز أنَّ الامتناع لم يكن مجرد غفلة بل عناد واستكبار.

*﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾، إشراقة البلاغة والأسلوب: إسناد الإخراج للشيطان "فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا" مع أنه تحذير لآدم وزوجه، وفي قوله "فَتَشْقَىٰ" بالإفراد دون "فتشقيا" إعجاز بلاغي؛ فالرجل هو المطالب بالكدّ والسعي والتأمين الإنساني لزوجه في الأرض (كما أشار البقاعي وابن عاشور) – رحمهما الله -.

*﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾، المقابلة والتناسب: نازع القران الجوع (خلو الباطن) بالعرى (خلو الظاهر)، والظمأ (حرة الباطن) بالضحى (حرارة الظاهر من شمس النهار). كُفلت لآدم كفاية الجسد ظاهراً وباطناً.

*﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ الأسلوب: حرف "إِلَيْهِ" أبلغ من "له"، لإفادة إيصال الوسوسة إلى عمق قلبه. ومخاطبة الشيطان استخدمت أسلوب العرض والتلطف "هَلْ أَدُلُّكَ" واللعب على العواطف وعلى أعمق رغبتين بشريتين: البقاء (الخلد) وحب التملك والاستحواذ والنفوذ (الملك).

فيه إشارة إلى ما فصله في سورة الأعراف: *﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف:20].

*﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾.

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ عَصَى آدَمُ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ آدَمُ عَاصٍ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُقَالُ عَاصٍ لِمَنِ اعْتَادَ فِعْلَ الْمَعْصِيَةِ، كَالرَّجُلِ يَخِيطُ ثَوْبَهُ يُقَالُ خَاطَ ثَوْبَهُ وَلَا يُقَالُ هُوَ خَيَّاطٌ حَتَّى يُعَاوِدَ ذَلِكَ ويعتاده.

عن طاوس أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله الله صلى الله عليه وسلم: احتَجَّ آدَمُ وموسى، فقال له موسى: أنتَ آدَمُ الذي أخرَجَتكَ خَطيئَتُكَ

مِنَ الجَنَّةِ؟! فقال له آدَمُ: أنتَ موسى الذي اصطَفاكَ اللهُ برسالاتِه وبكَلامِه، ثُمَّ تَلومُني على أمرٍ قُدِّرَ عليَّ قَبلَ أن أُخلَقَ؟! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فحَجَّ آدَمُ موسى، مَرَّتَينِ[1]..

البيان والتعبير: أثر المخالفة كان سريعا جداً (الفاء في "فَبَدَتْ"). والتعبير بـ "طَفِقَا يَخْصِفَانِ" يصور محاولة تدارك السوأة بشدة وفورية. ورغم العذر بالنسيان، لم يُلغِ القرآن توصيف المعصية "وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ" لإقرار المسؤولية.

*﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بعضكم لبعض عدو﴾، عرف آدم عدوه إذاً، وذلك من أعظم النعم أن ييسر للإنسان معرفة عدوه وإغراءاته ليصرفه عن الجنة

الأسلوب: "ثُمَّ" تراخٍ رتبِيّ، يرفع قدر التوبة والإنابة؛ إذ تحول النقص إلى كمال بالاجتباء، وتلاها البيانُ التشريعي العادل لخريطة طريق البشرية في الأرض.

قوله تعالى: ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ يوحي بجمال لباس الجنة جمال الجنة تماما، كما يوحي بالملكة التي غرسها الله في الإنسان، وأن يستطيع أن يخصف لباسه بنفسه، استعدادا لنزوله للدينا، وكده وكدخه وشقاه فيها.

المحور الثاني: معادلة الهدى والضلال وشقاء الإعراض: *﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾

إشراقة بلاغية: "ضَنكًا" مصدر وصف به للمبالغة (أي ضيقة ملتحمة الضيق)، وهي معيشة القلق وضيق الصدر مهما اتسعت الماديات، كما يصورها سيد قطب ومحمد قطب- رحمهما الله -. والجزاء بالضنك في الدنيا والعمى يوم القيامة هو تجسيد معنوي لإعراضه عن الحق في الدنيا.

*﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وقد كنت بصيراً﴾ نقلة في لمح البصر من الدنيا للآخر، ومن الوعيد إلى السؤال عن ما تحقق من الوعيد، والأضراب عن الدنيا لسرعة مرورها كأن لم تمر، ولكن نحاسب عليها، نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

الجزاء من جنس العمل: جاء الجواب "كُنتَ بَصِيرًا" في الدنيا بالعين، أما بالقلب فلا: *﴿قال كذلك أتتك آياتنا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾. نُسيَ كَما نَسِيَ آياتِ الله، أي تُرك في العذاب ترك النسيان.

(1) – أخرجه البخاري (3409)، ومسلم(2652) وانظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (758) .

قد أصبح هذا قانونا عاماً ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ ، فأنت لست وحدك، وإن كان الاجتماع والإشتراك في العذاب لا يجدي نفعا: *﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:39]، أما في الدنيا فقد يجدي ولو من سبيل المواساة:

قال ابن الرومي:

بكاؤكُما يشْفي وإن كان لا يُجْدي
فجُودا فقد أوْدَى نَظيركُمُا عندي

وقال غيره:

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة

يواسيك أو يسليك أو يتوجع

المحور الثالث: العبرة والتّشبّث بالعبادة والصبر: *﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾

السياق التاريخي: استخدام المشاهد التاريخية الشاهدة؛ فمساكن أُمم هلاكهم قائمة يشاهدونها في أسفارهم، تخصّ بالاعتبار "أُولِي النُّهَىٰ" (أصحاب العقول العاقلة عن الطيش).

*﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾

أشار جُلة من المفسرين وأئمة الإسلام (مثل ابن عاشور، وابن كثير، والطبري، والبغوي، وغيرهم) إلى أن الآية الكريمة من سورة طه (وكذلك نظيرتها في سورة ق) تنتظم أوقات الصلوات الخمس المفروضة بالتضمين والإشارة السياقية؛ فقبل طلوع الشمس هي صلاة الفجر، وقبل غروبها هي العصر، ومن آناء الليل المغرب والعشاء، وأطراف النهار يشمل وقت صلاة الظهر

إشراقة بيانية سياقية بلاغية. السياق النفسي والأسلوبي (التسلية والرضا): تأتي الآية الكريمة مفرعة على وجع الكلم، وثقل أذى المكذبين على قلب النبي ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾. والأسلوب هنا ينقل قلب النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه المؤمنين بالتبعية من ضيق مواجهة اللفظ الباطل إلى رحاب التسبيح والصلة بالخالق.

إنَّ الدواء الناجع لصخب الأرض وضجيج أصوات الكافرين هو الالتجاء إلى حضرة الملكوت بأوقات محددة تنتظم ساعات اليوم والليل.

(التسبيح بمعنى الصلاة)، ملازمة التسبيح: ذهب المحققون من أهل اللسان والتفسير كالإمام ابن عاشور إلى أن التسبيح هنا مستعمل إطلاقاً مراداً به "الصلاة"؛

لكون الصلاة أعظم مظاهر التسبيح والتنزيه، ولانطوائها على قراءة الحمد (الفاتحة)، والتسبيح في الركوع والسجود، فالباء في ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ للملابسة أي: صلِّ حامداً.

توزيع الأوقات:﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾: إشارة واضحة لصلاة الصبح (الفجر).﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾: إشارة لصلاة العصر، وقد فسرها النبي ﷺ بذلك في الحديث الصحيح، ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾: الساعات التي تعقب الغروب وسكون الكون، وهي أوقات المغرب والعشاء.﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾: جمع طرف، والطرف يطلق على أول النهار وآخره، وهو موضع صلاة الظهر والعصر وما يكتنف ذلك من امتداد النور.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنَّ رَجُلًا أصابَ مِن امرَأةٍ قُبلةً، فأتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخبَرَه فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: {أقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وزُلَفًا مِنَ اللَّيلِ إنَّ الحَسَناتِ يُذهِبنَ السَّيِّئاتِ}]هود: 114 [، فقال الرَّجُلُ: يا رَسولَ اللهِ، ألي هذا؟ قال: لجَميعِ أُمَّتي كُلِّهم[1].

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كُنَّا عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فنَظَرَ إلى القَمَرِ لَيلةً -يَعني البَدرَ- فقال: إنَّكُم سَتَرَونَ رَبَّكُم كما تَرَونَ هذا القَمَرَ، لا تُضامُّونَ في رُؤيَتِه، فإنِ استَطَعتُم أن لا تُغلَبوا على صَلاةٍ قَبلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقَبلَ غُروبِها فافعَلوا، ثُمَّ قَرَأَ: {وسَبِّح بحَمدِ رَبِّكَ قَبلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقَبلَ الغُروبِ}]ق: 39 [، قال إسماعيلُ: افعَلوا لا تَفوتَنَّكُم [2]..

اللمسة الحركية والكونية: تتجلَّى بلاغة النظم القرآني في ربط العبد بحركة الكون الفسيح؛ فالشروق والغروب ومشاهد الليل والنهار هي محطات وجودية يسبح فيها الكيان الإنساني بحمد ربه متجاوزاً أذى البشر وثقل المقولات الأرضية إلى سعة اليقين، وينتهي السياق بـ ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾؛ تعليلاً واستجابة نفسية مذهلة، فبقدر الإكثار من التسبيح في هذه العتبات الزمنية العلوية، ينزل الرضا الفائض على الروح، فيطمئن القلب وينزاح عنه ألم الخطاب وهم الواقع البشري المرفوض.

التناسب والتربية: الربط بين الصبر والتسبيح؛ فالتسبيح هو الزاد النفسي والروحي للحمل الثقيل. واستيعاب أوقات اليوم (أطراف النهار وآناء الليل) استغراقٌ يستجلب الرضا الإلهي والرضا النفسي "لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ".

*﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لنفتنهم فيه ورزق بيك خير وأبقى﴾.

(1) – اخرجه البخاي (526) ومسلم (4687) .
(2) – اخرجه البخاي (554) ومسلم (633)، وأبو داود (4729)، وابن ماجه (177) جميعا بلفظ مقارب.

البيان والتصوير: النهي لم يأتِ بـ "لا تنظر" بل "وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ" لإفادة شدة التطلع والانبهار. وتسمية المتاع "زَهْرَةَ" إشارة إلى سرعة زال الدنيا وذبولها وفاكهتها الزائفة، ثم التذكير بالبديل الأبدى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾

*﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ نخن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾

الزيادة في "وَاصْطَبِرْ" (على وزن افتعل) تمثّل مشقة المداومة وحاجة الصلاة لجهاد مستمر. ثم صيانة القلب من هموم المعاش: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، والختام "وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ" لحسم معركة الغايات.

*﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾، ديدن المشركين إنكارهم للوحي والرسالة، وأنكارهم للبعث، ثم طلبهم الملح من الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يأتيهم بآية، وتعليق إيمانهم وإتباعهم للنبي صلى الله عليه وسلم على نزول تلك الآية،

فكان الجواب: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾، يعني: بَيَانُ مَا فِيهَا، وَهُوَ الْقُرْآنُ أَقْوَى دَلَالَةٍ وَأَوْضَحُ آيَةٍ. وَقِيلَ: أو لم يأتهم مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَغَيْرُهُمَا مِنْ أَنْبَاءِ الْأُمَمِ أَنَّهُمُ اقْتَرَحُوا الْآيَاتِ، فَلَمَّا أَتَتْهُمْ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا، كَيْفَ عَجَّلْنَا لَهُمُ الْعَذَابَ وَالْهَلَاكَ، فَمَا يُؤَمِّنُهُمْ إِنْ أَتَتْهُمُ الْآيَةُ أَنْ يَكُونَ حَالُهُمْ كَحَالِ أُولَئِكَ [1].

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى﴾

خاتمة مهولة ترد على تعنت المكذبين وطلبهم للخوارق بكون القرآن معجزة جامعة محتوية على زبدة "الصُّحُفِ الْأُولَىٰ". وتنتهي بجملة فاصلة حازمة تحمل تهديداً وهدوءاً وثقة بالحق "فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ".

(1) – انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (760) .